محمود السعدني

ملاعيب الولد الشقي



دار الشروق

ملاعيب
الولد الشقي

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٩٢٨١/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2830-8

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email:dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمود السعدني

ملاعيب الولد الشقي

دار الشروق

المحتويات

١ - إنجلترا إن أمكنا!

أيام الصبا المبكر، وفي عام ١٩٤٦ على وجه التحديد، كان مجال العمل السياسي مفتوحًا للشباب الصاعد، الأحزاب على قفا من يشيل، والجرائد على ودنه، والجمعيات أكثر من الشماسي على شاطئ إسكندرية. وبعد هذا وقبل هذا أيضًا، كانت المظاهرات كمركبات الترام، مظاهرة وراء مظاهرة، وكانت متعددة الألوان، بعضها أحمر شفتشي يرفع المطرقة والمنجل، وبعضها أخضر مسخسخ يدعو للانفتاح والانبطاح، وبعضها يرفع راية بني العباس، وبعضها يرفع بيرق الإمام الحسن الشاذلي، وبعضها سكلانس يهتف: مصر والسودان لنا، وإنجلترا إن أمكنا.

والحق أقول إنني وشلّتي كنا نفضل الاندماج في المظاهرات التي ترفع شعار: «إن أمكنا» على أساس أنها مظاهرة قومية لا تفرض القيود على المنضمين إليها كما تفعل المظاهرات الحمراء أو الخضراء أو السوداء، ولكن حكومة صدقي باشا التي كانت تحكم مصر تلك الأيام، كانت حكومة عملية للغاية، ولذلك كان إيمانها ضعيفًا بمسألة إنجلترا إن أمكنا. وبناء على موقفها المتخاذل، هجمت علينا عساكر

الشرطة ذات مظاهرة وفقعتنا علقة لا تزال آثارها موجودة على ظهر العبد لله وعلى ظهور باقي الشلة. وكانت هذه العلقة سببًا في البحث عن وسيلة أخرى لنواصل العمل السياسي بعيدًا عن الضرب بالشوم وجريد النخل وأيادي المقشات، وكلها أسلحة مشروعة في العمل السياسي أيام زمان. فكرنا في الانضمام إلى حزب سياسي، وكان الوفد هو أقرب الأحزاب إلى فكرنا، وكان النحاس باشا هو أقرب الزعماء إلى قلوبنا، ولكننا صرفنا النظر عن الانضمام لحزب الوفد بعد أن ذهبنا إلى لجنة الوفد بالجيزة فلم نجد أحدًا في استقبالنا، ولم نجد أحدًا نتحدث إليه. والسبب أن الوفد لم يكن حزبًا في الواقع، ولكنه كان شعب مصر كله. يجمعه النحاس باشا بإشارة ويصرفه النحاس باشا بإشارة.

ولذلك لم يكن الوفد في حاجة إلى لجان أو وكلاء أو مندوبين يتحدثون باسمه. وألقينا نظرة على الساحة السياسية في مصر، واخترنا جماعة الإخوان المسلمين للانضمام إليها. كانت الجماعة في تلك الأيام في أوج نشاطها وفي عز ازدهارها، وكان للجماعة فروع في كل حي وأحيانًا في كل شارع.

وكانوا على وفاق مع حكومة صدقي، وكان صدقي باشا يستخدمهم ضد حزب الوفد، ولم نكن نحن في تلك الأيام على بينة بما يجري تحت السطح، ولم نكن ندرك على وجه الدقة الفرق بين الوفد والإخوان. أو حتى الفرق بين الإخوان والشيوعيين. كل ما كنا نعرفه في تلك الأيام هو أن النحاس باشا زعيم شعبي طيب ومحبوب من الجماهير. أما الزعماء الآخرون فلم نكن نعرف عنهم

شيئًا كثيرًا، والشيخ حسن البنا مثلا كنا نسمع عنه ولانراه. أما هيكل باشا والنقراشي باشا وحافظ رمضان باشا فقد كانوا بالنسبة لنا أشبه بخفرع وخوفو ومنقرع، ولكن الذي شجعنا على الذهاب إلى شعبة الإخوان بالجيزة شيء آخر غير حسن ومكتب الإرشاد. كان الإخوان المسلمون قد نجحوا في تربية مجموعة من الشباب أغلبهم من طلبة الجامعة، وانطلق هؤلاء يخطبون في المناسبات وفي الاحتفالات، ونجح هؤلاء في لفت أنظار الشباب، فقد كان أسلوبهم في الخطابة حماسيًا، ويتناولون موضوعات تثير خيال الشباب وتلهب مشاعرهم. كانوا يتحدثون عن استعادة لواء الإسكندرونة السليب، والحق أقول إنني أعجبتني حكاية السليب دي. رغم أنني لم أفهم معناها عند سماعي لها أول مرة ولكني بالرغم من ذلك شعرت براحة كبيرة ربما للتجانس في العبارة والهارموني الذي يجمعها، لواء الإسكندرونة السليب! ولم أكن أعرف على وجه التحديد أين تقع الإسكندرونة ولا ما هي مشكلتها الحقيقية، ولكن صفقت بشدة عندما استمعت إلى الخطيب الشاب يدعونا إلى الزحف المقدس لاسترداد لواء الإسكندرونة السليب. ليس هذا فقط فقد استمعت إلى خطيب شاب آخر في إحدى المناسبات، وانفعل بشدة وهو يدعونا ـ نحن شباب تلك الأيام ـ إلى تحرير إشبيلية وطليطلة والأندلس. وأعجبتني الفكرة وتمنيت أن أكون جنديا في فيالق التحرير لكي أزور الأندلس وأستمتع بمغانيها وبساتينها ومفاتنها. المهم أن العبد لله بعد خطبتين من دول خطفت رجلي ومعي الصديق طوغان «رسام الكاريكاتير الشهير الآن»، أقول: خطفت رجلي إلى شعبة الإخوان في الجيزة، وكان الوقت ظهرًا، ورجل يبدو عليه الهدوء والطيبة والسماحة يؤدي

صلاة الظهر وحيدًا في المكتب، يؤديها في هدوء وعلى المهل، وانتظرناه حوالي ربع ساعة حتى انتهى من صلاته، وعندما حاولنا فتح حوار معه، انهمك في تلاوة بعض الأدعية في الوقت الذي كانت أصابعه تعزف على حبات المسبحة لحنا صامتًا استمر عدة دقائق، وعندما حاولنا فتح حوار معه ألقى علينا السلام وصافحنا بحرارة ثم ألقى علينا سؤالًا مفاجئًا: إنتو أديتم صلاة الظهر؟ وكذبنا على الرجل الطيب وزعمنا له أننا أدينا الصلاة قبل أن نحضر إليه. وظهر واضحًا على وجهه أنه صدقنا، ثم عرضنا عليه رغبتنا في الانضمام إلى صفوف الإخوان، فرد علينا بهدوء قائلًا: على بركة الله ورسوله! ثم اتجه نحو المكتب بخطوات بطيئة وفتح دفترًا كدفاتر البقالين وتناول ريشة غمسها في دواة ثم استفسر منا عن أسمائنا، وبعد أن دون سدد إلينا نظرة طويلة. ثم مد يده اليمنى نحونا وقال بنفس النبرة الهادئة: خمسة صاغ كل واحد.. وضربت لخمة معنا نحن الاثنين فلم يكن في جيوبنا صنف العملة، ولم نتصور في أي لحظة أن التحاق زعيمين مثلنا يحتاج إلى دفع اشتراك! وأصارحكم الآن: إنني تصورت أن مجرد إبداء رغبتي في دخول حزب سيقابل بالترحاب الشديد. وقد يقرر الحزب الذي اخترته صرف معاش شهري للعبد لله! ولذلك كانت دهشتي كبيرة عندما طلب منا هذا المطلب العسير، وهو عسير لأن الخمسة صاغ أيامها كانت تساوي يومية عاملين من عمال شركة ماتوسيان. المهم أننا اعتذرنا للرجل الطيب بعدم وجود فكة معنا واستأذناه في الخروج إلى الشارع لفك ورقة من فئة العشرة جنيهات! وخرجنا بالفعل ولم نعد إلى هناك لحسن الحظ في أي وقت.

وأقول لحسن الحظ لأننا لو كنا نملك نقودًا في ذلك الوقت لدفعنا الاشتراك وأصبحنا أعضاء في الإخوان المسلمين، ومن يدري ر بما استبد بنا حماس الشباب في تلك الأيام فدخلنا نحن أيضًا في زمرة الخطباء ودعونا إلى استرداد لواء الإسكندرونة السليب وتحرير إشبيلية وطليطلة والأندلس، وربما استبد بنا الحماس أكثر فندعو إلى تحرير برشلونة ولابأس من تحرير مرابيا وريال مدريد. ومن يدري؟ ربما كنا ضمن الألوف الذين عكموهم بعد مقتل النقراشي باشا، ومن يدري؟ ربما كان العبد لله أميرًا لمنطقة ديروط في الوقت الحاضر وطوغان أميرًا لمنطقة أسيوط!

والمهم أننا هربنا بفضل الله من شعبة الإخوان المسلمين بالجيزة، وقضينا أسبوعًا كاملًا لا نقترب من شارع عبد المنعم، حيث يقع مقر الشعبة، وحتى لا يقع علينا نظر الرجل الهادئ البطيء الوقور الذي طلب من كل واحد منا خمسة صاغ وأجبرنا على أن نتحول إلى فص ملح وداب! ولقد حاولت بعد ذلك البحث عن هذا الرجل الطيب لكي أشكره وأقبل وجنتيه، لأنه طلب منا هذا المبلغ الجسيم وقتئذ فأجبرنا على الهروب، ولكن ما حدث بعد ذلك كان أغرب من الخيال.. فبعد مقتل النقراشي باشا امتلأت السجون بأعضاء الجماعة، فالقاتل كان منهم، وكان عضوا بالتنظيم السري للجماعة، وارتدى بدلة ضابط شرطة، ودخل وزارة الداخلية، ووقف عند الأسانسير حتى جاء النقراشي، فأخرج مسدسه وأطلق عليه النار وأرداه قتيلًا. وكانت حاسة الأمن في تلك الأيام ليست قوية كما هي الآن. كانت الدنيا طيبة والناس طيبين.. ورجال الشرطة أيضًا. وكان من السهل على أي إرهابي أو خلبوص أن يقتحم أي مكان أو يتسلل إلى أي موقع ويعمل عملته

المهببة، وبعد أن امتلأت السجون بالمتهمين والمشتبه فيهم والذين ليس لهم في الطور ولا في الطحين، مر على بيتنا كونستابل ممتاز اسمه عنتر، كان يسكن بالقرب منا، وطلب مني الذهاب إلى القسم لأمر هام. ثم مر على منزل طوغان وسحبه هو الآخر. وقطعنا الطريق إلى قسم الشرطة سيرا على الأقدام، عنتر يسير في الوسط وطوغان عن يمينه وأنا عن يساره، صحبة بريئة لا تلفت الأنظار، ولكن الفار لعب في عبنا عندما اقتربت القافلة من قسم الشرطة. أمسكنا السيد الكونستابل من مكان تحت القفا بقليل. وعندما نظرنا إليه بدهشة، قال معتذرًا.. معلهش.. علشان البيه المأمور ما ياخدش ملاحظة عليَّ. ولم يتسع الوقت أمامنا لسؤال عنتر عن علاقة البيه المأمور بالموضوع الذي جئنا من أجله إلى القسم فقد وجدنا أنفسنا فجأة أمام البيه المأمور، عنتر يضرب تعظيم سلام اهتزت له جدران الحجرة، وقال عنتر في لهجة حازمة:

ـ المطلوبين أهم يافندم.

إذن نحن مطلوبون.. ليه؟ هذا هو الذي لم نتوصل إليه حتى تلك اللحظة. وقال المأمور وهو يفحصنا بنظرات حادة.. خليهم عندك لما الجماعة ييجوا ياخدوهم، وخرجنا إلى مكتب عنتر، وهو مكتب حقير ليس به إلا ترابيزة كأنها ترابيزة بقال في حي شعبي، وجلس عنتر خلف الترابيزة ووقفنا أمامه في حالة ضياع وسألنا عنتر عن الحكاية فقال:

في الحقيقة ما أعرفش، لكن إنتم مطلوبين في القسم المخصوص.

يا خبر أسود في القسم المخصوص؟! المهم جاء أفندي متين البنيان، شكلة يوحي بأنه مدرس ألعاب رياضية، عاملنا بلطف واصطحبنا في سيارة إلى إدارة القسم المخصوص. وأمام ضابط آخر جلس يستجوبنا لمدة نصف ساعة، فتح دفترا وأطلعنا عليه كان اسم طوغان مكتوبًا على سطر وسنه وعنوان سكنه، وفي السطر الثاني اسم العبد لله وسني وعنواني، ثم قلم حبر مر على السطور فشطب على الأسماء وعلى المعلومات، ولكنه شطب يسمح بقراءة كل شيء..

سألنا الضابط هل أنتم أعضاء بالجماعة؟ فجاءه الجواب بالنفي.

عاد يسألنا.. طيب كيف وصلت أسماؤكم إلى هذا الدفتر؟! سؤال وجيه أجبناه عنه بمنتهى الصراحة، وحكينا له قصة الخمسة قروش التي اضطرتنا إلى الهروب من مقر الشعبة، وضحك الضابط ضحكة طويلة، وقال حظكم حلو وعلى العموم معلوماتنا عنكم إنكم شبان كويسين، تلعبون الكورة أحيانًا والطاولة أحيانًا، كما أنكم مشاغبون، ولكنكم مواطنون صالحون!! واستدعاؤكم إلى هنا كان ضروريًا لكي نستوثق منكم عن سر وجود أسمائكم في هذا الدفتر.

وخرجت من مكتب الضابط وأنا أشكر الله على الفقر والسلامة. لو كان مع العبد لله خمسة قروش، فربما قضيت خمس سنوات وراء الشمس، وشكرت الله على النجاة وقلت: وداعا أيها اللواء السليب، ووداعا للأندلس وطليطلة وإشبيلية وريال مدريد.

ولكن.. هل نكف عن الاشتغال بالسياسة؟ بالطبع لا. لقد ذهبنا نبحث عن الشيوعيين.. ولكن هذه قصة أخرى!

٢ـ تنظيم مشمش

في الطريق إلى الكرملين لم تصادفنا أية عقبات كتلك التي صادفتنا في شعبة الإخوان المسلمين، وكان للعبد لله صلة بأعضاء التنظيمات الشيوعية، فقد كانت جلستهم المفضلة على رصيف قهوة إيزافتش بميدان التحرير. وكان النشاط الشيوعي قد امتد إلى مساحات شاسعة في مصر خلال الحرب العالمية الثانية بعد أن أصبحت روسيا رفيقة سلاح لأمريكا وبريطانيا وفرنسا ضد هتلر وموسيليني، وكان أغلب زعماء الحركة الشيوعية من اليهود الفرنسيين والطلاينة، وتمكنوا في تلك الفترة من تجنيد مئات من طلبة الجامعة وعمال النسيج في شبرا الخيمة، وأطقم كاملة من الصولات داخل صفوف القوات المسلحة، ونجحت الحركة المصرية (حدتو فيما بعد) في تجنيد عشرات من شباب الفنانين والكتاب.

وكانت قهوة إيزافتش تحتل موقعًا استراتيجيا وسط ميدان التحرير، ويملكها مهاجر يوغسلافي فر من بلاده بعد انفراد تيتو بالسلطة. والسبب أنه كان مسلمًا من البوسنة ووالده كان من رجال الدين، واستطاع المهاجر اليوغسلافي بالتعاون مع شقيقه أن يجعل من قهوة

إيزافتش أشهر قهوة في مصر منذ عام ١٩٤٢ وإلى عام ١٩٧٢، عندما اضطر المهاجر اليوغسلافي إلى بيعها وهاجر إلى أستراليا، وكانت القهوة مكانًا مختارًا للمحامين وكبار الموظفين وأعيان الريف، الذين كانوا يترددون على وزارات الحكومة ومصالحها في حي لاظوغلي، فإذا حل المساء ازدحمت القهوة بالفنانين والمفكرين والمثقفين من كل لون. كان المهندس العالمي العبقري حسن فتحي يتردد عليها، والدكتور صبري السوربوني، وأبو بكر سيف النصر، الذي كان يشبه الملك فاروق كثيرًا، وكانت عساكر البوليس في ميدان الإسماعيلية (التحرير) يضربون له تعظيم سلام كلما جاء إلى القهوة على أساس أنه الملك فاروق في جولة ليلية لمعرفة أحوال الرعية.

وكان يأتي إليها أيضًا أحمد رشدي صالح الكاتب والأديب وأستاذ الفن الشعبي، كما كان يأتي إليها مجموعة من أشبال ذلك الزمان، من بينهم محمد عودة ولطفي الخولي وصلاح حافظ، وكان الجميع يتخذون لهم أماكن داخل القهوة الواسعة ما عدا مجموعة الشيوعيين، أو هكذا كانت فكرة العبد لله عنهم، فكانوا يحتلون رصيف القهوة في صف واحد وكأنهم في مسرح. وكانوا يطلقون شواربهم على طريقة الرفيق ستالين، والبعض منهم يطلقون ذقونهم على طريقة الرفيق لينين، ويجلسون صامتين طول الوقت يحدقون في اللاشيء فإذا مرت أنثى أمامهم تعقبوها بنظراتهم وأداروا رءوسهم من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فإذا اختفت عن الأنظار أو غابت في الظلام عادوا إلى وضعهم الأصلي في انتظار أنثى جديدة.

وكانوا نادرًا ما يتكلمون فإذا طلبوا شيئًا من الجرسون طلبوه

بالإشارة، وكان بينهم وبين الجرسون التركي (علي) شفرة خاصة متفق عليها فإذا أشاروا إليه بالسبابة فالمقصود قهوة سادة.. وإذا أشاروا إليه بالسبابة والوسطى فالمطلوب عيش سرايا، وعندما تناولت مقعدًا ووضعته بجانبهم على الرصيف سددوا إليَّ نظرات نارية وكأنني ارتكبت جناية، ثم لزموا الصمت طول الليل فلم يهمس أحدهم بكلمة، ويبدو أنهم تصوروا أنني مخبر في المباحث، ويبدو أن هذا الشك تأكد لديهم في اليوم التالي.

عندما حضرت للمرة الثانية وجلست معهم على نفس الخط ولم أكن وحدي في تلك المرة، ولكن كان معي الفنان طوغان، ومن حسن الحظ أن أحدهم ـ وقد جاء متأخرًا ـ كان يعرف طوغان فصافحه بحرارة وبحكم الصحبة صافحني أنا الآخر، وعندما اتجه نحوهم ليتخذ مكانًا بينهم التفوا حوله ودار بينهم همس طويل، ثم التفتوا نحونا وحيونا بهز رءوسهم، وكان هذا أول الغيث.

وفي الليلة التالية انفتح بيننا وبينهم بربخ كلام لم ينقطع طول الليل. كان الموضوع الذي يدور حوله الحديث مقالًا للدكتور محمد مندور، وأكذب عليكم لو قلت لكم إنني فهمت حرفًا واحدًا مما دار. ولأول مرة في حياتي أستمع إلى كلمة الاستاتيك والديناميك والاستغلاق والاستبطان والشواشي العليا للبورجوازية وطبقة الكولاك والتناقض الرئيسي والتناقض الثانوي.

والحق أقول إن الرطانة التي كان يمتلكها أفراد هذا التنظيم أصابتني بعقدة فترة غير قصيرة من الزمان فقد تصور العبد لله أن هذه اللغة هي التي يجب أن يتكلم بها المثقفون، وانتابني يأس شديد

في أن أصبح مثقفًا يومًا ما فإجادة هذه اللغة تحتاج إلى وقت طويل. وعندما صارحت محمد عودة بهذا الإحساس الذي انتابني، استنكر ضعفي وقلة حيلتي ووصف هؤلاء الذين يستخدمون هذه الرطانة بالجهلاء، وقال إنهم بعيدون كل البعد عن الشعب المصري، ولا يتكلمون لغته، وإنهم يشبهون جرسونات الفنادق الكبرى، يرتدون الاسموكن أثناء العمل ويرتدون الجلابية الكستور في البيت. وذات مساء دار نقاش حاد بين طوغان من ناحية وبين تنظيم إيزافتش من ناحية أخرى، بدأ النقاش حول الموسيقى الكلاسيك.. موسيقى بتهوفن وباخ وموزارت ورمسكي كورساكوف، وعاب أحدهم على إذاعة القاهرة عدم اهتمامها بهذا النوع من الفن الرفيع، ونجح العبد لله في التسلل إلى المناقشة عندما قلت لهم إن سكان حارة أبو الليف في الجيزة سيغلقون الراديو عند إذاعة موسيقى كورساكوف لأنهم سيتصورون أن كورساكوف هو نوع من أنواع السجاير.

امتعض بعضهم من التعليق، ومط بعضهم شفتيه احتقارًا، وانتقل النقاش بسرعة إلى جهل الشعب الذي مهد الطريق للسلطة لكي تسوقه في الاتجاه الذي تريده. فالشعب يحب أم كلثوم مع أنها في الحقيقة عميلة للرأسمالية والإقطاع والشواشي العليا للبورجوازية، وأغانيها هي أفيون الشعب الذي يخدره ويفقده الإحساس بمشكلاته، وعبد الوهاب يحبه الشعب والسلطة تفرضه على المساحة الأكبر من وقت الإذاعة، لكي يتلهى الشعب عن واقعه المر ويسبح مع عبد الوهاب في الليل والنجوم طالعة تنورها، مع أن الشعب لو نال حقه من الثقافة الحقة لوضع عبد الوهاب في خانة أعدائه، فهو في الحقيقة مطرب الملوك والأمراء وبينه وبين الشعب «بِيدٌ بينها بِيدُ» على رأي الشاعر المتنبي.

عند هذه النقطة من النقاش غلب الطبع على التطبع، فانهلت بالشتائم على رأس أعضاء التنظيم الماركسي الذي كنت أتصور حتى تلك اللحظة أنه الحزب الشيوعي المصري. وكانت الشتائم من النوع المقتبس بعناية من خناقات حارة الطشطوشي؛ تناولت الآباء والأجداد. وانتهت الجلسة بأن هبوا واقفين فجأة وانصرفوا بربطة المعلم وتوغلوا في الميدان دون أن يدفعوا الحساب، مما دفع الجرسون «علي» إلى الجري وراءهم ولم يعد إلا بعد أن قبض ثمن ما تناولوه من أطعمة ومشروبات، في الليلة التالية جاءوا متأخرين بعض الوقت، وعندما شاهدونا في أماكننا على الرصيف ابتعدوا عنا قليلًا وجلسوا صامتين، ثم علمت بعد ذلك أنهم اتهمونا بأننا بوليس. وفكرت أنا وطوغان بعد أن وصلنا نبأ هذا الاتهام في الاستعانة بشلة الجيزة لضربهم علقة ساخنة، ولكن محمد عودة نهانا عن ذلك وقال في لهجة ساخرة: شغل الجيزة ده ما ينفعش هنا. قلت لمحمد عودة: لقد اتهمونا بأننا بوليس، وهي تهمة في وزن الشرف الرفيع الذي لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم.

وشرح محمد عودة للعبد لله ما غمض علينا. فهؤلاء هم أعضاء تنظيم شيوعي يدعى «مشمش»، وهؤلاء الذين يجلسون على رصيف إيزافتش هم كل أعضاء التنظيم ولديهم تحليل لا ينزل الأرض ولا يخر الميه، تحليل يقول: إن تنظيمهم هو التنظيم الوحيد الذي يحاول بشرف إعادة صياغة الحياة في مصر وعلى النحو الصحيح وعلى ذلك فكل من ليس عضوًا بالتنظيم فهو بوليس، ولذلك فقد قاطعوا الجميع حتى أعضاء التنظيمات الشيوعية الأخرى، لأن الجميع

يتحالفون مع البوليس لضرب التنظيم الوحيد الذي سيقود المسيرة إلى الوضع الأفضل والأمثل!

شيء واحد فقط استفدناه من مشمش، أصحاب الشوارب الاستالينية والصلعات اللينينية، أثناء النقاش حول الفن والأغاني تردد اسم سيد درويش أكثر من مرة، ووصفوه بالمعلم والرائد والقائد أيضًا، وكان للعبد لله رأي مخالف في سيد درويش، فقد كانت الإذاعة المصرية تذيع برنامجًا أسبوعيًا عن فن سيد درويش، وكان يقوم بتقديم البرنامج الفنان محمد البحر الذي هو في الوقت نفسه ابن الفنان سيد درويش، ولكن لأن الفرق بين الابن محمد البحر والأب سيد درويش كان مثل الفرق بين الأرض والسماء، فقد جاء البرنامج في غير صالح سيد درويش، خصوصًا بالنسبة لجيل العبد لله الذي لم يعاصر سيد درويش ولم يستمع إليه في حياته، ولذلك رحت أتلمس الطرق نحو سيد درويش وفنه الحقيقي.

وكان مدخلي إليه ثلاثة من فحول الفنانين، على رأسهم زكريا أحمد وزكريا الحجاوي ومحمود الشريف، ومن خلال هؤلاء الفنانين الثلاثة تعرفت على سيد درويش.. وتشرفت.. وكانت هذه هي الحسنة الوحيدة التي أسداها إلينا تنظيم مشمش، الذي انتهى أغلب أفراده نهاية غريبة؛ بعضهم اشترك في أكبر عملية اختلاس شهدتها مصر، وبالمبالغ التي تم اختلاسها أنتجوا فيلما للممثلة كاميليا، وانتهى الأمر بهذا البعض إلى الحياة خلف الأسوار سنوات طويلة، وأحدهم وكان يدعى الدكتور كركور قام في بداية حياته بمحاصرة قصر الأمير محمد علي بالمنيل، وأنزل العلم المصري

من فوقه ورفع بدلًا منه بطانية صوف من النوع الذي كان يستعمله الجيش البريطاني، ثم أنهى حياته بالحصول على الدكتوراه من جامعة ألمانية، أما رسالته فكانت عن فرع من فروع العلم لا يعرفه العبد لله، وأعتقد أن الدكتور نفسه لا يعرفه أيضًا، ثم ألقي القبض عليه في عام ١٩٧٢ بتهمة النصب على بعض الأثرياء العرب، فقد حصل منهم على مبالغ جسيمة بدعوى أنه مندوب إحدى الشركات الألمانية المعروفة.

وهكذا ضاع تنظيم مشمش في الكازوزة وكنسه التاريخ في ترابه. التنظيم الذي قاطع أم كلثوم وعبد الوهاب والشيخ محمد رفعت وخاصم الشعب المصري كله واتهمه بأنه بوليس، وعاش في شرنقته يجتر جهله وغباءه ويتصرف كما وصفه محمد عودة كجرسونات الفنادق يرتدون السموكن في الشغل والجلابية الكستور في البيت، وانتهت أيضًا قهوة إيزافتش التي أسسها مهاجر يوغسلافي اشترك في الحرب الشعبية ضد النازي ثم فر من تيتو ومن بلاده ولجأ إلى مصر، ولكن تيتو لم يتركه، وكان البوليس المصري يقبض على الشقيقين اليوغسلافيين كلما حضر تيتو إلى القاهرة ولا يفرج عنهما إلا بعد أن تصبح طائرة تيتو في الجو.

ولكن.. هل تتوقف محاولتنا عن الاشتغال بالعمل السياسي في تلك الفترة المبكرة من الشباب؟! بالطبع لا، فقد كانت لنا أحلام وتطلعات.. ولذلك عدنا نبحث من جديد عن مكان لنا تحت الشمس بعد أن أقنعني طوغان بأن مصر على أبواب مرحلة جديدة من النضال، وكان الزمن قد زحف بنا إلى عام ١٩٤٩. وتلفتنا حولنا نبحث عن

مكان نلجأ إليه بعد أن فشلنا في الوصول إلى مكتب الإرشاد، ثم فشلنا مرة أخرى في الوصول إلى الكرملين، ولم نجد أمامنا إلا حزبًا جديدًا بزعامة علي ماهر باشا، وذهبنا بالفعل لمقابلة الباشا، ولكن ما حدث هناك كان أغرب من الخيال.

٣ـ حزب تايه.. يا ولاد الحلال

أصبحنا فجأة أعضاء في اللجنة المركزية لحزب جبهة مصر الذي يقوده صاحب المقام الرفيع علي باشا ماهر. أما كيف قفزنا مرة واحدة من زبائن على رصيف قهوة إيزافتش إلى اللجنة المركزية لحزب رفعة الباشا، فقد تم الأمر ببساطة وبهدوء وطبقًا للمثل الشائع: تجري جري الوحوش وغير رزقك ما تحوش.. وإذا كانت الخمسة قروش قد منعتنا من الوصول إلى مكتب الإرشاد لجماعة الإخوان المسلمين، كما منعتنا لغة الحنجوري التي كان يتحدث بها تنظيم مشمش من الوصول إلى الكرملين، فقد وصلنا مباشرة إلى اللجنة المركزية لحزب جبهة مصر بسبب نيتنا الطيبة ودعاء الوالدين، وقد حدث الأمر دون إعداد أو تمهيد، التقينا بالصدفة بشارع سليمان باشا (طلعت حرب الآن) طوغان وأنا بصحفي كبير كان يعمل في دار الهلال، وبعد السلام والكلام، قال لنا الصحفي الكبير:

ـ إنتو وراكوا إيه بكرة؟

ولما لم يكن ورانا أي شيء بكرة أو بعد بكرة، فقد دعانا لحضور

اجتماع اللجنة المركزية لحزب جبهة مصر، الذي سيعلن رفعة الباشا شخصيًا عن قيامة في اجتماع الغد، وعندما استفسرنا من الصحفي الكبير عن كيفية حضورنا اجتماع اللجنة المركزية في الوقت الذي لم نلتحق فيه بالحزب بعد، رد الصحفي على الفور.

ـ ستحضرون اجتماع اللجنة المركزية باعتباركم ممثلين عن شباب الحزب!

قال ذلك وانصرف دون أن يوضح لنا الطريقة التي تم بها اختيارنا ممثلين لشباب الحزب.

ولم ينس الصحفي الكبير أن يكتب لنا العنوان الذي ستجتمع فيه اللجنة المركزية بقيادة رفعة الباشا، المهم أنني عشت الوقت الفاصل بين التقائنا بالصحفي إياه وموعد الاجتماع في حلم اللجنة المركزية، وبالطبع عندما يؤلف صاحب المقام الرفيع حزبًا «لخوض الانتخابات القادمة» وعندما يختار رفعة الباشا طوغان وأنا ممثلين للشباب في اللجنة المركزية، فلابد أن رفعة الباشا قد أحسن الاختيار، ولابد أن في الجعبة وزارة أو مصلحة أو هيئة أو أي شيء من هذا القبيل يضمن لنا المكتب والسكرتيرة والعربية والسواق.

وسرح خيال العبد لله بعيدًا، ففكرت في التصريحات التي سأدلي بها للصحف عقب اجتماع اللجنة المركزية، لأن رفعة الباشا بالتأكيد سيختار العبد لله متحدثًا رسميًا عن اللجنة المركزية لعدة أسباب، منها أنني أمثل الشباب في اللجنة المركزية والشباب هو المستقبل. ومنها أيضًا أنني متحدث عام، على وزن نائب عام ومدير عام ومراقب عام، وأنا أتحدث عادة في الفاضي وفي المليان، وأتحدث بلا انقطاع،

وأستطيع أن أتحدث وأنا جالس وأتحدث وأنا واقف وأتحدث وأنا نائم وأتحدث وأنا أتحدث! وسيكون أول حديث للعبد لله لمندوبي الصحف بمثابة قنبلة تحدث دويًا في كل الأوساط.

سأؤكد للجميع أن حزبنا هو حزب المستقبل، وأن برنامجه هو الكفيل بحل مشاكل مصر من الألف إلى الياء، وعندما نتولى السلطة بإذن واحد أحد، فسنعمل بكل طاقاتنا ليكون لكل مواطن منزل وسط حديقة غناء. وسيارة مع صرف بونات بنزين مجانية أول كل شهر مع المرتب، وسنوفر عملًا لكل عاطل، وملجأ لكل متشرد، وزنزانة لكل مسجون، ورطل لحم لكل جائع، ومرضعة لكل طفل وعريسا لكل عانس، وطقم أسنان لكل أهتم عديم الأنياب والأضراس! ولا شك أن حديثي سيكون له وقع السحر في المعركة الانتخابية، وسيحملنا الناخبون على الأكتاف إلى مكاتب الحكومة في لاظوغلي.

وعندما جاء موعد اجتماع اللجنة المركزية ارتديت الحتة الزفرة، وقمت بتلميع الجزمة بعلبة ورنيش كاملة، وحرصت على أن أضع في جيب الجاكتة العلوي منديلًا أبيض على شكل الأهرامات، واشتريت علبة سجاير عشرين، ماركة واسب، ومعها مشط كبريت شغل بره. وخرجت في الصباح الباكر إلى بيت طوغان، ومن هناك زحفنا إلى ميدان الجيزة وركبنا الترام درجة أولى ودفع كل منا «ثلاثة تعريفة» كاملة، مع أنه في الماضي وقبل أن نصبح أعضاء في اللجنة المركزية كنا نركب درجة ثانية بستة مليمات، وفي أحيان كثيرة ولدواع أمنية كنا نتشعبط على السلم ونقفز من ترام إلى ترام.

ونزلنا في ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن) وتوغلنا في شارع

سليمان باشا، كان منظر الشارع هذه المرة يختلف عن منظره في المرات السابقة، ولفت نظر العبد لله وجود بعض الباعة السريحة على رصيف الشارع.. البعض يبيع فاكهة المانجو والبعض سارح بأمشاط.. وقررت أن أضيف على برنامج الحزب العمل على إخلاء الشوارع الرئيسية من جميع الباعة السريحة، وإلحاقهم بوظائف حكومية بمرتبات مجزية تضمن لهم العيش الكريم وسنضمن تأييد أصحاب المحلات لحزبنا، وكذلك تأييد السادة المثقفين والأثرياء والصياع، الذين يقطعون شارع سليمان باشا أثناء النهار، وعندما وصلنا إلى مكان الاجتماع وجدنا الصحفي إياه واقفا عند الباب، استقبلنا بشوق شديد، ثم قادنا بسرعة إلى الداخل قائلًا لنا في لهجة احتجاج:

- إنتو اتأخرتوا ليه؟ دا رفعة الباشا منتظركم.

انتفخت أوداجنا وانتعشت آمالنا ونحن ننقل خطواتنا وراءه، نخرج من دهليز إلى دهليز آخر، حتى انتهى بنا إلى صالة فسيحة. كان رفعة الباشا يجلس في صدر المكان، وعن يمينه واحد باشا آخر من أقربائه. وعن يساره رجل آخر يبدو عليه أنه باشا، فقد كانت ملابسه توحي بذلك، وكما توقعنا هب الباشا والبشوات الآخرون وقوفًا وصافحونا بحرارة، وانتفخت أوداجي أكثر، فكل أحلامي ستتحقق وعلى الفور، ولكن قلبي غاص في ركبتي عندما أخطأ الباشا في نطق أسمائنا، فنادى طوغان بطوقان، ونادى العبد لله بالسعداوي، ولكن طوغان طمأنني ونحن نسير خلف الباشا إلى مكان الاجتماع بأن طبقة البشوات لها لهجة خاصة تختلف عن لهجتنا نحن أبناء الناس اللي مش بشوات، واقتحم الباشا مكان الاجتماع، ولم يكن هناك سوى عشرين شخصًا، أغلب الظن أنهم مثلنا جاءوا صدفة وبلا ميعاد.

وجلسنا أنا وطوغان في الصف الأول بعد أن انتهت عاصفة التصفيق، ووقف الباشا خطيبًا، فهنأ مصر بحزبها الجديد، وهنأ الشعب المصري بقيادته الواعية التي ستقوده على طريق الخلاص إلى الغد السعيد، وقال رفعة الباشا وهو يضرب المنضدة بقبضة يده، ثم وهو يشير نحونا: لقد تعاهدت مع هؤلاء الرجال الشرفاء على أن نخوض المعركة مهما تكن الصعاب والعقبات، وسنخوض المعركة بإذن الله ونحن نضع رءوسنا على أكفنا مضحين بكل غال ورخيص وحتى بأرواحنا، حتى يتحقق للوطن ما يصبو إليه من عز وسؤدد.

ألقيت خلفي نظرة لأرى الرجال الذين تعاهدوا مع رفعة الباشا، فهو بالقطع لا يقصدنا أنا وطوغان، ولكن رأيت الصفوف الخلفية تنظر خلفها أيضًا، فهم بالقطع مثلنا لم يلتقوا بالباشا إلّا هذه اللحظة، ولم يعاهدوه على أي شيء!! المهم أن الخطبة انتهت وسط عاصفة من التصفيق، بينما عدسات المصورين تلتقط صورًا للباشا وهو يلوح للجماهير، ثم انشغل المصورون بتصوير اللجنة المركزية، وانشغلت أنا الآخر بالمصورين؛ ففشخت بُقِّي عن ابتسامة عريضة، وتحفزت للإدلاء بالتصريحات التي ستنفجر كالقنبلة في المحافل السياسية، ولكن المصورين ومندوبي الصحف انطلقوا خلف الباشا، وعندما انطلقت به السيارة تفرقوا وذهب كل منهم في اتجاه، وقلت لطوغان ونحن عائدان إلى الجيزة مشيًا على الأقدام:

- إنت ما خدتش بالك.. الباشا ما سلمش علينا وهو ماشي..

وقال طوغان:

- مش مشكلة دي.. إحنا نتصل بيه بالتليفون بكرة.

ـ وتليفونه عندك؟

ـ نجيبه من الصحفي بتاع دار الهلال.

وقضيت الليل أفكر في مستقبلي السياسي، سنتصل برفعة الباشا غدًا ونحدد موعدًا للاجتماع به لنخطط معًا لمستقبل الحزب، والباشا بالطبع مشغول بأشياء كثيرة، ولذلك سيترك لنا أمر الحزب نتصرف فيه كما نريد، وليس على الباشا إلا حضور الاجتماعات وإلقاء الخطب في الاجتماعات الشعبية، وفي الصباح جلسنا بجوار التليفون في قهوة محمد عبد الله نتصل بالصحفي إياه، ولكنه لم يكن موجودًا في كل مرة نسأل عنه، وقال طوغان:

ـ طبيعي لازم يرتاح بعد المجهود اللي عمله في اللجنة المركزية.

واقترحت على طوغان أن يستفسر من الدليل عن رقم تليفون الباشا، فلابد أن لديه تليفونًا للاتصال بجماهير الحزب التي عاهدته على السير وراءه حتى الموت من أجل تحقيق مصالح الوطن. ولكن موظف التليفونات ضحك من الأعماق على سذاجتنا، لأن تليفونات الباشا لا يعلمها إلا علام الغيوب والباشا، وتكررت محاولة الاتصال بالصحفي الذي قام بدور مقاول الأنفار لحزب الباشا، ولكن جميع محاولاتنا للاتصال به باءت بالفشل. فقررنا أن نذهب إليه في عقر مكتبه.

وفي اليوم الرابع قمنا بهجوم خاطف عليه، وفوجئ بنا ونحن ندخل عليه مكتبه، وأبدى دهشته الشديدة لأننا نريد مقابلة الباشا،

وأخبرنا أن الباشا سافر إلى الإسكندرية للاستجمام بعد المجهود الرهيب الذي بذله في تكوين الحزب، وأن الأطباء نصحوه بالتزام الراحة وحرموه من تناول أي أطعمة إلا كوب عصير في الصباح وصدر فرخة في المساء، وأكد أن الباشا سيعقد اجتماعًا معنا بعد شفائه لتنظيم كل الأمور المتعلقة بالحزب، ثم ضحك ضحكة صافية وقال:

ـ على فكرة.. الباشا بيكلمني النهاردة في التليفون وبيسلم عليكم ومبسوط منكم قوي!

وبالرغم من كل شيء صدقنا الأستاذ الصحفي وانبسطنا جدًا لأن رفعة الباشا يسأل عنا، وانتهزنا الفرصة فسألناه عن رقم تليفون الباشا، ولكنه أكد لنا أنه لا يعرف رقم تليفون الباشا لسبب بسيط هو أن الباشا لا يعطي رقم تليفونه لأحد، ولكن الباشا يتصل بالذين يريد أن يتصل بهم، ثم قال:

ـ وإنتو كمان بعد ما تقعدوا مع الباشا إن شاء الله هيتصل بيكم.

والغريب أننا شعرنا بالراحة لأن رفعة الباشا سيتصل بنا في المستقبل. ولم نكلف أنفسنا عناء الاستفسار عن كيفية اتصال الباشا بنا، لأننا لم نكن نملك تليفونًا، ولم يكن هناك احتمال أن يكون لدينا تليفون في المستقبل القريب.

على العموم.. الباشا سيتصل بنا.. وودعنا الصحفي وانصرفنا.

حدث هذا في عام ١٩٤٩ وجرت الانتخابات وانتهت، وجاء الوفد واحترقت القاهرة وقامت الثورة وجاء محمد نجيب ومضى

وجاء عبد الناصر وذهب إلى رحاب الله، وجاء أنور السادات وذهب إلى حال سبيله. ثم جاء حسني مبارك، واجتاح الأشاوس أرض الكويت، ثم نشبت أم المعارك، ثم لقيت حتفها وهي في عز الشباب، وحتى كتابة هذه السطور، لم يظهر لحزب نهضة مصر أي أثر، ولم يتصل بنا الباشا، ولم نتصل نحن بالباشا، ومع ذلك سيذكر التاريخ السياسي أن العبد لله كان عضو اللجنة المركزية لحزب رفعة الباشا، الذي سيتسلق الجبال والحبال لكي يحقق لمصر النصر والسؤدد!!

٤ - البرنامج الخنفشاري

قررنا، طوغان وأنا، أن نختصر طريق المجد وأن نصنع المجد بأيدينا لا بيد عمرو أو زيد. قررنا إصدار جريدة نعرض فيها برنامجنا على الأمة وننتظر رأيها في الانتخابات التي سنفوز بها بلا شك. ولكن طموحنا لم يكن بقدر إمكانياتنا. فإصدار جريدة في ذلك الوقت كان يتكلف مائة ألف جنيه على الأقل، ولما كنا لا نملك أكثر من عشرة جنيهات، فقد اكتفينا باستئجار رخصة مجلة أسبوعية، وقررنا إصدارها مرتين في الشهر، واستعنا بالصديق علي كامل، فصار مديرًا للتحرير، وكتب العبد لله مقالًا سياسيًا وقصة قصيرة، وتولى طوغان جميع الرسوم الكاريكاتورية ولوحات (وموتيفات) شخصيات سياسية ودينية وفنية ورياضية. وصدر العدد الأول بعد أن طبعناه في مطبعة بدائية اشتركنا نحن الثلاثة، علي كامل وطوغان وأنا، في إدارتها يدويًا.

وعندما صدر العدد الأول، لم يكن في العدد أكثر من عشر صفحات مكتوبة، بينما الصفحات الأخرى بيضاء من غير سوء، لأن الرقابة شطبت جميع المواد التي كنا في طريقنا إلى نشرها على

الشعب المصري لكي يقتنع ببرنامجنا السياسي الخطير ويحملنا على الأعناق في الانتخابات النيابية القادمة، ويقتحم بنا قصر رئاسة الوزارة في لاظوغلي لنصبح حكومة تحكم الشعب بالشعب للشعب! وأذكر أننا نحن الثلاثة خرجنا نطوف بالأسواق نسأل باعة الجرائد عن أرقام توزيع جريدتنا.

وجاءتنا الأنباء مطمئنة ومشجعة، أحدهم قال إنه باع مائة نسخة، وآخر أكد أنه باع أربعمائة نسخة وثالث أكد لنا أنه باع كل النسخ التي وصلته ولم يحدد عددها، ولكنه طلب منا أن نضاعف له الكمية في الأعداد القادمة. وقمنا بإجراء عملية حسابية بسيطة بناء على ما صرح به الباعة الذين توجهنا إليهم بالسؤال، وخرجنا منها بنتيجة وهي أن كل النسخ التي نزلت السوق تم بيعها عن آخرها.

كنا قد طبعنا ثلاثة آلاف نسخة من مجلة الأسبوع، أخذنا منها مائتي نسخة لزوم السادة المسئولين عن المجلة من أمثالنا ولإرسال بعض النسخ إلى زملائنا من المحررين الكبار أمثال مصطفى أمين ومحمود أبو الفتح وشكري زيدان والسيدة روز اليوسف!! وأمسكنا بورقة وقلم ورحنا نحسب على وجه الدقة المبلغ الذي سيدخل جيوبنا من حصيلة توزيع مجلة الأسبوع. فلو افترضنا أن الكمية المبيعة هي ألفان وثمانمائة نسخة، وتباع النسخة بقرشي صاغ، فمعنى ذلك أن حصيلة البيع ستة وخمسون جنيهًا تأخذ شركة التوزيع منها الثلث.. أي ثمانية عشر جنيها وعدة قروش فيتبقى لنا سبعة وثلاثون جنيهًا وعدة قروش، كان في ذمتنا لتاجر الورق ثمانية عشر جنيهًا، وللمطبعة عشرة جنيهات، وكان في المجلة ثلاثة إعلانات تغطي

حصيلتها كل الديون ويتبقى لدينا ما ننفقة في الجلسات التاريخية التي سنعقدها في مطاعم شارع الألفي وفي مقاهي شارع عرابي، كان الإعلان الأول عن كينالاييس، وهو مشروب يقول عنه أصحابه إنه يمنح شاربه الصحة والقوة، والشعور بالشباب يتدفق في عروقه حتى ولو كان في سن السبعين، وكان صاحب كينالاييس شابا يونانيا يدعى لوانيدا.

وعندما التقينا به وشرحنا له الهدف من إصدار المجلة وهو الوصول إلى السلطة لكي نحقق برنامجنا الذي سيحل مشاكل الشعب المصري قرر على الفور نشر إعلان في كل عدد من المجلة على الغلاف الخلفي بمبلغ عشرة جنيهات كاملة. أما الإعلان الثاني فقد كان من مصمم أزياء مصري، وقد ذكر في إعلانه أنه المصمم المصري الوحيد الذي نال الجائزة الأولى في المهرجانات العالمية. ولم نسأله طبعًا عن شكل هذه الجائزة الأولى أو عن طبيعتها، كما لم نسأله عن هذه المهرجانات العالمية التي حصل فيها على الجائزة الأولى ولا عن المكان الذي انعقدت فيه. أما الإعلان الثالث فكان عن أسماك الحرية إدارة الحاج محمد هريدي وشركاه.

والحقيقة أن منظر الدكان كان لا يسمح بوجود أي شركاء للحاج محمد هريدي، ثم علمنا بعد أن توطدت الصلة بيننا وبينه أن زوجته هي شركاه! أما مصمم الأزياء العالمي فقد دفع خمسة جنيهات نظير صفحة في الداخل، أما الحاج محمد هريدي وشركاه فلم يدفع شيئًا، بعد أن نشر ثلاثة إعلانات في صفحات متفرقة، كل إعلان على ربع صفحة، ولكننا أخذنا بحقنا أسماكًا وسلطات وخبزًا، فقد تناولنا

طعام الغداء عند الحاج محمد هريدي، وكنا أربعة بعد أن انضم إلينا صاحب المطبعة الذي قام بطبع العدد الأول.

المهم أن شركة التوزيع أرسلت إلينا كشف توزيع العدد الأول. لم تكن شركات التوزيع في ذلك الزمان على هذا النحو الذي عليه شركات التوزيع الآن، ولكن شركة التوزيع كانت مجرد حجرة بسيطة، وصاحب الشركة (معلم) يرتدي اللاسة والجلباب البلدي والحذاء أبو رقبة الذي يصدر أنغامًا موسيقية أثناء السير به. جاءنا المعلم رئيس شركة التوزيع وأخبرنا بنبأ جعل شعرنا الأسود يشيب، الخبر الذي حمله إلينا رئيس شركة التوزيع.. أن أعداد المجلة المرتجعة، بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة عدد، كيف يا معلم؟ هذا هو الذي حدث نحن لم نطبع من المجلة إلا ثلاثة آلاف نسخة، وسلمنا شركة التوزيع ألفين وثمانمائة نسخة ولكنها عادت إلينا ثلاثة ألاف وخمسمائة نسخة، فكيف وصلت هذه السبعمائة نسخة التي أضيفت إلى المرجوع؟

المهم أن هذه النتيجة السيئة لم تفت من عضدنا ولم تمنعنا من المضي إلى نهاية الطريق فقررنا إصدار العدد الثاني، وقد صدر بعد ظهور العدد الأول، بخمسة وعشرين يومًا، وكان مصير العدد الثاني كالعدد الأول، مع اختلاف بسيط هو أن المعلم رئيس شركة التوزيع رفض أن يعيد إلينا الأعداد المرتجعة وقام ببيعها بالأقة لبعض محلات بيع اللب والفول السوداني، وقال في تبرير هذا العمل إنه باع الكمية ليأخذ عرقه.. بفتح العين والراء، ولم يفصح لنا عن حجم الأعداد المبيعة والأعداد المرتجعة، واكتفى بقوله عندما سألناه: أهو بخيتة زي بخيت!

العدد الثالث من مجلة الأسبوع كان نهاية الطريق، صدر العدد الثالث بافتتاحية كتبها محام بعنوان (يا أيها النمل) ولم يظهر من المقال إلا العنوان فقط، أما المقال فقد أكلته الرقابة ضمن ما أكلت من العدد الثالث. وكان مقال العبد لله عن مصر المخترقة أرضها المستباحة بفضل وجود مطارات على أرضها وموانئ في بحارها لا تخضع لسيادة الدولة المصرية ولكنها تخضع لجيش الاحتلال، وقلت في المقال إن كل المواد المخدرة التي تصل إلينا تصل عن طريق هذه المطارات، وكل الأموال المهربة من مصر تأخذ طريقها للخارج من خلال هذه المطارات.

ولكن مقال العبد لله لم يظهر منه إلا عدة أسطر متناثرة على مساحة ثلاث صفحات، ورسم طوغان صورة لجندي إنجليزي يفتح فمه، الذي بدا كأنه جراج عمومي وطابور من العربات يتدفق داخله وكل سيارة مكتوبة عليها كلمتان. أرز مصر، قمح مصر، قطن مصر، ولكن الرقيب وضع بقعة سوداء على وجه العسكري البريطاني. فبدت الصورة بعد الطبع وكأن فم العسكري الإنجليزي هو مجرد مخزن كبير، بينما السيارات تدخل إلى المخزن وهي تحمل كل هذه المواد الغذائية، والحمد لله لأنه لم يكن هناك قراء للمجلة وإلا لأبدى بعضهم رأيه في رسوم طوغان عمليًا بضربات الأيدي وكعوب الأقدام.

المهم أننا بعد طبع العدد الثالث، وكنا جلوسًا في المطبعة والساعة تدق الخامسة صباحًا، جلسنا نتناقش في مستقبل الجريدة ومستقبلنا السياسي أيضًا، اقترحت على علي كامل وطوغان اختصار الطريق،

وبدلًا من تسليم النسخ للموزع ثم يقوم الموزع بتوزيعها في السوق، ثم يقوم بجمعها من السوق، ثم يكتشف في العدد الأول أن المرجوع أكبر من المطبوع، ويبيع الموزع العدد الثاني لباعة اللب والفول السوداني ولا يكلف خاطره بإبلاغنا عن حجم البيع سواء للقارئ أو لمحلات الفول السوداني، معللًا بيع العدد بالأقة للحصول على عرقه الذي بددناه.

اقترحت على زميليَّ علي كامل وطوغان أن نقوم نحن ببيع العدد الثالث من المطبعة رأسًا إلى بتوع اللب والفول السوداني دون المرور بهذه اللفة الطويلة التي ليس لها مبرر على الإطلاق. ولم يستغرق النقاش بيننا أكثر من دقائق حتى اقتنع الصديقان علي كامل وطوغان بأن بيع المجلة لباعة الفول السوداني الآن وعلى الفور هو أحسن حل لمشاكلنا كأفراد ولمستقبلنا كسياسيين ولبرنامجنا السياسي الاجتماعي الخنفشاري الذي من أجله سيرفعنا الناخبون على الأعناق، وسيذهبون بنا إلى كراسي الأحكام والسلطان والهيلمان.

وبالفعل خطفت رجلي إلى أحد تجار الورق بشارع كلوت بك، وتصور العبد لله أنه بعد السلام عليكم وعليكم السلام فإن الأمر لن يستغرق أكثر من دقائق معدودة وينتهي كل شيء على ما يرام، ولكن أدركت في ذلك اليوم أن السوق له قوانين وأنه لابد من احترام قوانين السوق، حتى في عملية هايفة كتلك العملية التي كنت مكلفًا بإتمامها في ذلك الصباح، وعلى رأس قوانين السوق التي تعلمتها أن الأمر يختلف اختلافًا رهيبًا، بين أن تسعى أنت إلى التاجر أو يسعى التاجر إليك. ويبدو أيضًا أنه كان يبدو على العبد لله أنني أتعجل

إتمام الصفقة وكأنني حرامي وأرغب في التخلص من جريمتي بأي ثمن وفي أقصر وقت، وظهر على التاجر المدرب أنه لا يريد الصفقة، فلديه كميات ضخمة من الورق، وقال وهو يتثاءب.. السوق ميت الأيام دي، ولو خليتهم عندك شهرين ثلاثة يمكن العجلة تتحرك.

وكادت أعصابي أن تفلت مني وهممت بشتيمة التاجر، إلا أن طريقته في الاستفزاز لم تكن من النوع الذي يبرر رد الفعل العنيف الذي كنت أفكر فيه، وسيطرت على أعصابي وقلت له بنفس الغتاتة والغلاسة التي كان يتكلم بها.. طيب إن شاء الله أفوت عليك بعد شهرين، فرد بنفس الصوت النحاسي الرديء.. ولو بعد ثلاثة أشهر يبقى أحسن!

ودخت دوخة الأرملة وأنا أسعى بين شارع كلوت بك إلى شارع عبد العزيز وبين الفوالة والعشماوي، باحثًا عن تاجر يرضى الحضور معي إلى المطبعة لشراء المجلة، وعندما أعيتني الحيل رحت أجر رجلي جرا نحو المطبعة، وكم كانت دهشتي عندما شاهدت على باب المطبعة رجلًا بجلباب ومعه عربة وميزان ضخم بينما راح بعض العمال يحملون نسخ المجلة إليه ويجري وزنها بإشراف طوغان، وكان البائع يبدي تذمره بين الحين والآخر لأن أعداد المجلة وزنها أكبر من حجمها الحقيقي، لأنها سخنة وخارجة لتوها من المطبعة، المهم أننا اختلفنا بعض الوقت ثم اتفقنا في النهاية وحصلنا من البائع السريح على أربعة وثلاثين جنيهًا ثمنًا لأعداد المجلة، وكان هذا المبلغ هو أول أرباح نحققها من العمل الصحفي وبهذا المبلغ قضينا أربعة أيام على شاطئ البحر في الإسكندرية، وقضيناها في

تفكير هادئ وقمنا برسم خطوط مستقبلنا السياسي في الفترة القادمة، وتجنبنا في الخطة الجديدة كل الكمائن والشراك التي نصبت لنا من قبل، واتفقنا على الخطة الجديدة وتعاهدنا على تنفيذها على أكمل وجه، وعدنا إلى القاهرة وبدأنا في تنفيذ الخطة، ولكن.. ما هي الخطة؟ وما هو الهدف؟ هذا ما سوف نكشف عنه وعن تأثيره الخطير، ليس بالنسبة لنا فقط ولكن بالنسبة لمصر وللعالم العربي وللعالم الثالث عشر!

٥ـ خنجر في الظلام

وهكذا.. أصبحت اللجنة المركزية في حالة انعقاد دائم للبحث عن وسيلة لتأدية الدور التاريخي الذي وضعته الأقدار على أكتافنا لقيادة مصر والعالم العربي.. واجتمعت اللجنة المركزية بالفعل.. علي كامل وطوغان وأنا لاتخاذ القرارات اللازمة والحازمة لتحقيق هذا الهدف الذي سيدخل التاريخ من بوابة المتولي.. ولما كان الرسام طوغان هو مدير عام المشروعات، فقد طرح للمناقشة مشروعًا خطيرًا سرعان ما وافقنا عليه واعتمدناه. واتخذنا قرارًا فوريًا بوضعه موضع التنفيذ.

كان الاقتراح هو تأليف حزب خاص بنا ودعوة الجماهير إلى حضور الهيئة التأسيسية لوضع الخطوط العريضة لبرنامج الحزب، والبحث في إصدار جريدة أو مجلة للحزب حسب التساهيل، وباعتبار العبد لله مفكر الحزب وفيلسوفه الوحيد ومسئول مكتب الإعلام في اللجنة المركزية، فقد وضعوا في عنقي مهمة دعوة جماهير الحزب وعقد الاجتماع الذي تحدد له تاريخ بعد أسبوع، ولكن المشكلة التي واجهتني هي جماهير الحزب التي سندعوها للاجتماع. فقد كنا حتى هذه اللحظة لا علاقة لنا بأية جماهير من أي نوع، ولكن

التجربة مفيدة في مثل هذه المواقف، والعبد لله صاحب تجربة في حزب رفعة الباشا، ولذلك قررت الاستفادة من تجربة رفعة الباشا فندعو الجماهير إلى الاجتماع ولأسباب مختلفة تغري كل إنسان حسب أطماعه أو حسب تطلعاته على الحضور!.

وبدأت الشغل على ودنه. خطفت رجلي إلى عبده بكر المكوجي لحضور الاجتماع مع شلته، ولم يكن عبده بكر إلا المكوجي الذي يقوم بكي ملابسنا ويمتلك دكانا بشارع عباس بالجيزة. وكان عبده قلقًا وطموحًا ومتطلعًا ونهما إلى الشهرة وتحقيق ذاته، وهداه طموحه في فترة الحرب العالمية الثانية إلى تكوين فرقة مسرحية ضم إليها بعض الخدم والطباخين وبعض الخادمات من المترددين على محله، وقام بالفعل بتأليف رواية اسمها «خنجر في الظلام» استأجر لتأليفها طرابيشي سابق أهمل عمله بعد أن أهمل الناس ارتداء الطربوش قبل أن تقوم الثورة بإلغائه بعد ذلك بعدة سنوات.

وكان السبب في إهمال الناس للطربوش هو ولع العساكر الإنجليز بخطف الطرابيش من على رءوس المصريين، وسجلت أقسام الشرطة في القاهرة محاضر بخطف خمسين أو ستين طربوشًا كل يوم. هذا بالطبع غير الطرابيش التي آثر أصحابها الصمت وترك عوضهم على الله.

المهم أن المؤلف الطرابيشي وكان اسمه أحمد شلبي، وكان حريصًا على أن يكتب اسمه أحمد جلبي، على أساس أن هذا هو الصواب أقول: المهم أن المؤلف أحمد شلبي أو جلبي حضر إلى دكان عبده المكوجي ذات صباح وفي يده كشكول وعدة أقلام «كوبيا»

لزوم تأليف المسرحية، وجلس على كرسي بالقرب من عبده، الذي كان يتولى عملية التأليف شفاهة أثناء قيامه بعملية كي ملابس الزبائن، بينما يقوم عم شلبي أو جلبي بالتأليف الفوري آخذًا في الاعتبار وضع الأحداث التي يرويها عبده في الإطار المسرحي الملائم وحسب قواعد أرسطو ودريني خشبة وعبد الفتاح البارودي.

وكان عبده بكر من ممثلي مسرح رمسيس ومن عشاق يوسف بك وهبي، أما اشتغاله بالتمثيل مع يوسف وهبي فقد جاء عن طريق مقاول أنفار استأجر عبده ضمن مجاميع كثيرة من البشر ليؤدي دور كومبارس صامت في رواية «أبناء الفقراء» وبعد انتهاء عرض الرواية ظل عبده ملازمًا للمسرح يبحث عن دور، وعندما أغلقت فرقة رمسيس أبوابها، تضخمت أحلام عبده إلى درجة أنه قرر تأليف فرقة مسرحية والقيام بأدوار يوسف بك وهبي شخصيًا. ولذلك أيضًا جاءت مسرحية «خنجر في الظلام» خليطًا من مسرحيات يوسف بك وهبي من أول «أولاد الفقراء» إلى «عريس في علبة» وتناثرت في أنحاء مشاهد «خنجر في الظلام» عبارات مشهورة ومحفوظة ليوسف وهبي، عبارات من أمثال.. شرف البنت زي عود الكبريت ما يولعش غير مرة واحدة و.. يا جوليا يا مرات الكل يا مزبلة.. و.. روح عليك اللعنة يا عدو الله. وكانت هذه العبارات تجري على ألسنة أبطال «خنجر في الظلام» بدون مناسبة وبغير سبب على الإطلاق.

كانت فاطمة في رواية «خنجر في الظلام» تعتب على حبيبها تخلفه عن الحضور في الموعد المحدد، فصرخ فيها كامل بطل

الرواية قائلًا: يا جوليا يا مرات الكل يا مزبلة! وكان الأجر الذي يحصل عليه المؤلف شلبي يحسب باليومية، ولذلك استغرق تأليف المسرحية وقتًا طويلًا، وكان عبده لا يخفي تبرمه من هذا الوضع، وينفخ بشدة وهو يقول للمترددين على دكانه: دا بيلهف يومية خمسة قروش. دا غير الأكل اللي بيطفحه طول النهار، والسجاير اللي نازل شرب فيها زي الحريقة، وكان عبده بكر يبالغ في مسألة السجاير.

كان شلبي قنوعًا في مسألة التدخين ويقوم بالتخميس مع عبده في كل سيجارة يشعلها، عبده يشفط نفسا وشلبي يشفط نفسا، وهكذا حتى تنتهي السيجارة، وغالبًا كانت تنتهي بين أصابع عبده، الذي تحول لون أصابعه إلى شيء أشبه بصفار البيض وكانت «أفلة» المسرحية أو خاتمتها معقدة إلى درجة أن العم شلبي استغرق في كتابتها عدة أسابيع. وكان عبده يصرخ في وجه شلبي مصرًا على أن تأتي الأفلة «روعة.. تعمل هزة في البلد» ولكن عندما نفد صبر عبده، أصدر قرارًا عاجلًا بفصل عم شلبي وصرفه بمعروف بعد أن استولى منه على كشكول المسرحية. وعندئذ كتب عبده على غلاف الكشكول «رواية خنجر في الظلام» تأليف عبده بكر.. إخراج عبده بكر.. بطولة عبده بكر.. بالاشتراك مع أمينة رزق وفاطمة رشدي».

وبدأت بالفعل عملية البروفات على المسرحية، وفي المساء من كل يوم كان عبده يزيح الترابيزة على جنب ثم يبدأ في إجراء البروفات.. وكان عبده هو البطل، والبطلة خادمة عند أحد القضاة

وتدعى أمينة. أما الأبطال الآخرون فكان أبرزهم صابر الطباخ ومحمد شيف.. وشدت الضجة المنبعثة من دكان عبده أنظار رجال المباحث فهجموا على دكانه وألقوا القبض على الخادمات والطباخين والسفرجية. وغاب عبده وفرقته أيامًا في التخشيبة، ثم خرجوا جميعًا بعد عمل التحري اللازم وثبوت براءتهم من ارتكاب أعمال جنائية.

وانفض مولد «خنجر في الظلام» ولكن ظل عبده يبحث عن مكان لإجراء البروفات وعن مسرح لعرض الرواية، ولذلك كان يرقص طربًا والعبد لله يدعوه لحضور الاجتماع للبحث عن أنسب الطرق للقيام بعدة أنشطة فنية وللنظر في إجراء بروفات على مسرحية «خنجر في الظلام»، وفي فورة حماسه قرر تخفيض سعر الكيّ للعبد لله، ليصبح قرش صاغ واحدًا لكل ثلاثة قمصان، وكانت بقرش ونصف قبل توجيه الدعوة إليه!

وانتقلت بعد ذلك إلى دكان الكابتن أنور، وهو سمكري سيارات وكابتن فريق السلاح الماضي لكرة القدم، وكان الفريق يضم بين أفراده نجم الكرة المصري الشهير في الأربعينيات والخمسينيات فؤاد صدقي. وكان من أحلام الكابتن أنور إنشاء اتحاد لكرة القدم في الجيزة للإشراف على دوري فريق الحواري من «الأسهم النارية» و«الأسد المرعب» إلى «السلاح الماضي» و«العفاريت الزرق» وجلست مع الكابتن أنور وأقنعته بضرورة حضور الاجتماع التاريخي الذي سينظر في أمور كرة القدم في الجيزة تمهيدًا لتأسيس الاتحاد والإشراف على دوري فرق الحواري والأحياء.. وأقنعته بضرورة

حضور أكبر عدد ممكن من الناس لكي نضمن التصويت لصالحنا أثناء عملية الانتخاب.

وفي اليوم الثالث خطفت رجلي إلى دكان المعلم قطب وأقنعته بحضور الاجتماع وضرورة حضور عدد من أصدقائه لضمان التأثير على الحاضرين لكي نخرج في النهاية بقرار يضمن لنا العفو عن كل الجرائم التي ارتكبت أثناء الحرب العالمية الثانية ضد قوات الحلفاء، وكان المعلم قطب صاحب دكان في الجيزة، وكان يستخدمه كمسكن يقيم فيه مع زوجته وأطفاله الثلاثة، ولم يكن بالدكان أي شيء معروض للبيع، ومع ذلك كتب قطب على جدرانه حكمة: «ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب. الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب».

وكان المعلم قطب لا يخفي عداءه للإنجليز ويتمنى لهم الهزيمة ويعلن حبه الشديد للألمان ويدعو لـ«هلتر» بالنصر.. وكان يحتقر كل من يتعامل مع الإنجليز، ولو بشراء السجاير منهم أو بخطف المحافظ من جيوبهم.. وأحيانًا كثيرة كان قطب يسأل العبد لله. إلا لو روميل دخل مصر هيدوروا على الناس الجدعان اللي وقفوا ضد الإنجليز؟ والَّا برضه هترجع ريمة لعادتها القديمة؟!

ولكن لسوء حظ المعلم قطب أن روميل تراجع وتقدم مونتجمري، وتبددت أحلام قطب وأصيب بالإحباط، فقد كان يتصور أن حل جميع مشاكله يتوقف على انتصار روميل. الذي سيبحث عن الجدعان الذين قاطعوا الإنجليز ودعوا لهم بالهزيمة. وفي ظل تلك الظروف الكئيبة التي أحاطت بالمعلم قطب، هبط

عليه ذات مساء أحد فتوات الجيزة ويدعى مصطفى لطفي، وعرض على المعلم قطب عرضًا سال له لعابه، عرض الفتوة مصطفى لطفي استئجار دكان قطب لتخزين بعض البضائع.. مجرد تخزين فقط، ومقابل عشرين جنيهًا كل شهر.

يا إله السماوات والأرض، عشرين جنيهًا مرة واحدة لم تدخل جيب المعلم قطب طوال حياته، يا لها من صفقة العمر، ومع من؟ مع مصطفى لطفي الفتوة الذي تنحني له كل الرقاب، وفي الصباح جاء الفتوة ومعه عربة لوري وأنزل الشحنة.. صناديق مغلقة وفرد كاوتش وبطاريات سيارات جديدة وأدوات أخرى لم يدقق المعلم قطب كثيرًا في حقيقتها.

وانقلبت أحوال المعلم قطب رأسًا على عقب. استأجر شقة جديدة بثلاثة جنيهات على مقربة من الدكان، نقل إليها الزوجة والأطفال وجلس هو على باب الدكان يحرس بضائع لا يعرف منها شيئًا.. ومرت ستة أشهر كاملة وهو يرتع في هذا النعيم، حتى جاء صباح أسود من قرون الخروب، حين هجم على دكان قطب عدد من الضباط والمخبرين ليفتشوا الدكان ولينقلوا كل شيء إلى سيارة كانت معهم، وساقوا المعلم قطب أمامهم مقبوضًا عليه إلى سجن مصر، وفي التحقيق اكتشف المعلم قطب أن دكانه عامر بأشياء مسروقة من معسكرات الجيش الإنجليزي. وأنكر قطب معرفته بأي شيء وادعى أن أشخاصًا مجهولين حملوها إليه نظير إيجار شهري هو في أشد الحاجة إليه.

ولم يجرؤ المعلم قطب أن يكشف للمباحث عن شخصية مالك

الأشياء هذه، ووجد قطب نفسه بين نارين، إذا كشف عن حقيقة مصطفى لطفي فقد يلقى حتفه تحت الضربات الساحقة لقبضة مصطفى لطفي القوية، وإذا سكت فسيدخل السجن ويضيع في الكازوزة. ومرت سنوات طويلة بين تحقيق ومحاكمة وتأجيل وخرج بكفالة مائة جنيه دفعوها له، وعاد من جديد يجلس أمام الدكان الذي تحول إلى مسكن لأسرته مرة أخرى، ثم صدر حكم غيابي ضد قطب بالحبس لمدة سنة، ثم استأنف الحكم، ثم تاهت القضية ولا أحد يعرف السبب، ثم عادت القضية فجأة وأعلنوا قطب بضرورة الحضور، ولكن قطب صمم على الاختفاء، ولكن أحد المحامين طمأنه بأنه ومجموعة من كبار المحامين يعملون بكل جهدهم لإصدار قانون يقضي بإسقاط جميع الجرائم التي ارتكبها مصريون ضد قوات الاحتلال أيام الحرب..

وكان مدخل العبد لله إلى المعلم قطب هو ضرورة حضور الاجتماع مع أكبر عدد ممكن من الناس للضغط على الحكومة لإصدار قانون العفو عن جميع المصريين وعلى رأسهم المعلم قطب، وعندما سمع المعلم قطب من العبد لله هذه الأسطوانة، وقف ورقص بالفعل وطبع على رأس العبد لله قبلة ودعا للعبد لله بالنصر.

وهكذا.. أصبحت الجماهير مستعدة لحضور اجتماع أول جمعية تأسيسية لحزبنا الجديد الذي سيقود المسيرة ويرفع العلم المصري على منابع النيل.. فقد كانت هذه النقاط من أهداف حزبنا!

ويوم الاجتماع جلست كما علي ماهر باشا في حجرة جانبية

بمكتب محاسب صديقي يقع في ميدان الجيزة.. ولكن يا للهول..
على رأي يوسف بك وهبي على الذي جرى لنا في هذا الاجتماع،
الذي شابت لهول أحداثه الغربان والفئران ورأس العبد لله أيضًا، مع
أنني كنت في الثانية والعشرين من العمر!!

٦ ـ صفيحة السوابق

يا داهية دقي.. فضيحتنا ووكستنا يوم الاجتماع الجماهيري الحاشد لإعلان قيام حزبنا الحديدي الذي سيقود المسيرة من الجيزة إلى برج بيزا، مرورًا بالإسكندرية والأندلس وطليطلة ومالطا وصقلية وكل الجزر التي كانت تبعنا ومن أملاكنا يوم كنا خير أمة أخرجت للناس ثم ضاعت من أيدينا عندما صرنا (....) أمة بين الناس!

جلس العبد لله في حجرة جانبية، في مكتب المحاسب الصديق بميدان الجيزة وجلست جلسة «الخالق الناطق» عمنا رفعة علي ماهر باشا يوم اجتماع حزبه الجماهيري الذي يشبه حزبنا الجماهيري أيضًا.. على أساس أن جماهيري هو لقب أحزاب تلك الأيام، وهمس طوغان في أذني ونحن جلوس في انتظار الجماهير بكلمة جعلتني أرتعد من هول المفأجاة.. قال طوغان:

ـ إحنا نسينا حاجة مهمة قوي.

ـ إيــه؟

ـ نسينا نطلق اسمًا على حزبنا!!

يا خبر أسود ومهبب ومزفت.. صحيح لقد نسينا في غمرة انشغالنا بمستقبل حزبنا أن نطلق عليه اسما، ولكن بسيطة! واقترح علي كامل أن نتدارك الموقف ونطلق عليه اسم حزب الأهالي، تشبها بحزب الأهالي العراقي، ولكني رفضت لأن صلتنا بالعراق ليست على ما يرام.. ولذلك من الأفضل أن نطلق عليه اسم حزب الشعب على اسم حزب الشعب السوري الذي كان من بين زعمائه السيد علي بوظو.. وكان صديقًا للعبد لله، وهي الصداقة التي استمرت بيننا حوالي ربع ساعة هي المدة التي استغرقها لقائي به عند زيارته للقاهرة في فترة سابقة، وهتف طوغان صارخًا.. أقترح تسمية حزبنا بحزب النجادة، على غرار حزب النجادة اللبناني، وقال طوغان.. إنه حزب طيب ومواصفاته كلها طيبة، وهو حزب كشافة ومعسكرات خلوية، وأعضاؤه يعلقون المطاوي في أحزمة بنطلوناتهم، ورئيس الحزب له جولة كل عام في أنحاء العالم العربي المتيسر لجلب الإعانات والإكراميات.

المهم أننا بعد أن استعرضنا كل الأحزاب العربية من أول حزب الكتائب إلى حزب الاستقلال إلى حزب وداد جلبي يابوي لمعت في ذهن العبد لله فكرة جهنمية، لماذا لا نطلق على حزبنا اسم حزب الجماهير؟!! يا لها من فكرة رائعة مثل فكرة واحد صاحبنا اسمه عبد الفتاح الجيزاوي.

كان يغني في الأفراح والليالي الملاح في الجيزة، وكان يدعي كذبًا أنه على صلة قرابة بالمنولجست عمر الجيزاوي، وكان عبد الفتاح هو التجسيد الحي لمطرب الأخبار الذي ابتدعه خيال الكاتب أحمد رجب ونفخ فيه الروح على صفحات الأخبار.

وكان عبد الفتاح لا ينجو في كل فرح من علقة حتى تورم قفاه بالفعل، وبمرور الزمن وليأسه من أن يصبح مطربًا قام بتغيير اسمه من عبد الفتاح الجيزاوي إلى عبد الفتاح المطرب، ونشر إعلانًا رسميًا يطالب المعترضين بالتقدم إلى الجهات الرسمية بأسباب الاعتراض، وبعد مرور المهلة المحددة، صار اسمه الرسمي عبد الفتاح المطرب، ولكن اسمه الفعلي ظل على ألسنة الناس.. عبد الفتاح الجيزاوي!!

المهم أن الاسم الذي اقترحته لحزبنا نال استحسانًا وموافقة على الفور، وصار اسمه حزب الجماهير، بدأت الوفود تتوافد على مقر الحزب.. وجاء في البداية وفد الكابتن أنور، وجاء معه عدد من أعضاء الفريق، بعضهم حمل كور أنبوبة والجميع يرتدون زي الكورة، ولما كانت العين بصيرة واليد قصيرة، فقد جاء بعضهم وقد أخفوا الجلباب داخل اللباس، وكان معهم أيضًا عم بسيوني، وهو رجل عجوز كان يعمل فراشا في أحد البنوك، ويرتدي نظارة طبية، فلما اعتزل العمل في البنك عمل حكمًا بين فرق الحواري، وكان يتقاضى خمسة قروش عن كل مباراة.

وكان في الملعب شديد العنجهية والغرور، والكارت الأحمر حاضر دائمًا ومستعد لطرد كل من يرفع صوته بالاحتجاج.. وعندما لمحني عم بسيوني أجلس منجعصًا وواضعًا ساقًا على ساق، أخرج صفارته من جيبه وأطلقها تحية منه للعبد لله، وجلس أعضاء الفريق واحتلوا الصفوف الأمامية، ثم راحوا يهتفون: يا محني ديل العصفوره، فرقتنا هية المنصوره!

وجاء فريق المعلم قطب ومعه بعض حرامية المعسكرات الذين كانوا يسطون على معسكرات الجيش الإنجليزي أيام الحرب، بعضهم دخل السجون، وبعضهم لا تزال قضاياهم معلقة أمام المحاكم، ولكن الأمر الذي جعل قلبي يغوص في ركبتي هو ظهور الفتوة مصطفى لطفي في القاعة، فلما رآني أتصدر المكان، أدرك أنني الرئيس فهتف على الفور بصوته الجاعورة.. يا ميت مسا، أجدع ناس واللي خلق الخلق.. أهو كده.. لازم القواضي دي تنشطب، همه يعني عملوا إيه؟ سرقوا إنجليز، طيب وفيها إيه دي؟ ثم دي غنايم، والنبي ألف صلاة عليه خد الغنايم من الكفار! وصاح واحد آخر من أصحاب السوابق الذين ترددوا على السجن أكثر من مرة، طب واللي خلق الخلق الحكومة دي ـ يقصد حكومة إبراهيم عبد الهادي ـ كافرة، دول قعدوني في السجن ٥ سنين، عشان إيه يعني؟! شوية مواسير خدناهم من المعسكر، واللي خلق الخلق لازم نرفع قواضي وناخد التعويض!

وهب بعده واحد من السوابق وأزاح جلبابه عن ظهره، فبدا أثر لجرح قديم وقال بصوت غليظ: اللي انت شايفه ده ضربة سونكي من عسكري إنجليزي، ولولا لطف الله كنت زماني نايم في قرافة الإمام الشافعي من سنين، ودا غير الضرب والإهانات اللي شفناها في مكتب البيه ضابط المباحث واللي زاد وعاد رمونا في السجن أربع سنين! ودعا المعلم قطب فرقته إلى الهدوء، وقال.. الحمد لله ربنا وقفلنا البيه في سكتنا وربنا يكافئوه حسب نيته، والليلادي وإن شاء الله هتنشال كل القواضي من «صفيحة» السوابق ونرجع أنضف من الصيني بعد غسيله! واقتحم مقر الحزب عبده بكر المكوجي على

رأس فريقه، لمحت على رأسهم صابر الطباخ ومحمد شيف وهو طباخ هو الآخر، ولكنه اشتغل فترة في بيت أحد السفراء، فأطلقوا عليه في السفارة لقب (الشيف)أي رئيس الطباخين. فلما ذهب إلى القهوة في المساء وأبلغهم نبأ تعيينه (شيف) في السفارة سخروا منه وأطلقوا عليه اسم محمد شيف، وصار علمًا عليه بعد ذلك، وبعد قليل دخل الاجتماع عم جلبي مؤلف (خنجر في الظلام) ولاحظت في يده نسخة من الرواية، كما لاحظت وجود نفس النسخة في يد عبده بكر!

اكتملت الآن اللجنة التأسيسية لحزب الجماهير، وما على الزعيم الذي هو حضرتنا إلا بدء الاجتماع وإلقاء الخطبة النارية التي لابد ستذيعها وكالات الأنباء في أنحاء المعمورة، وكان طوغان قد استدعى المصورين لالتقاط الصور التذكارية للاجتماع التاريخي، وقد حضر متأخرًا ووقف يعتذر عن التأخير حاملًا في يده كاميرا سوداء اللون تشبه الصندوق مركبة على حامل بثلاثة أرجل ويتدلى منها قماش أسود طويل كالشوال، وفي اليد الأخرى جردل ماء، ومعه مساعد بلمبة كهربائية (فلاش) لزوم التصوير في الليل، وبعد أن نصب العدة أدخل المصور رأسه في الشوال الأسود، وراح المساعد يفرقع الفلاشات، ثم يسحب أوراق من الكاميرا ويضعها في ماء الجردل، ثم مد حبلًا يشبه حبل الغسيل نشر عليه الورق الذي استخرجه من الكاميرا!

ووقف العبد لله وسط عاصفة من التصفيق، وانطلقت الهتافات من فريق الكابتن أنور السمكري (يا محني ديل العصفوره) وبعد أن

ألقيت السلام على الحاضرين، وقبل أن أتفوه بأي كلمة، وقف عم جلبي وقال موجهًا الحديث لحضرتنا:

ـ أنا بس عندي كلمة قبل حضرتك ما تتكلم.. أشرت له بالجلوس ولكنه مضى قائلًا:

ـ أنا عارف! إنك عاوز تساعد عبده وربنا يسهله، أنا راجل باحب الخير للناس، لكن انت ما يرضكش إن حقي يتاكل (خنجر في الظلام) أنا اللي كاتبها والنسخة بخطي أهه، والنسخة اللي مع سي عبده بخطي برضه.. وأنت..

وقبل أن ينتهي من كلمته، نهض عبده كالمجنون ولعن سنسفيل اللي نسلوا عم جلبي، وقال.. دا راجل مجنون، كل الحكاية أنا جبته عشان خطه حلو، طيب.. خليه يقول كده جملة في المسرحية.. خليه يقول جوليا يامرات الكل يا مزبلة، ثم نظر نحو جلبي وقال.. تعرف معناها دي؟ تعرف تقول.. أنا لما كنت في سويسرا واشوف التلج نازل كنت أتذكر عرق الفلاح اللي بيتصبب من الجباه بالشكل ده!! تعرف يتصبب يعني إيه؟ وتعرف بقى إن ما كنتش هتخرج من هنا، أنا هابيتك في المستشفى الليلادي.. عند هذا الحد هب مصطفى لطفي غاضبًا وصاح في صوت سمعه بالتأكيد الذين في الميدان.

ـ إيه دي؟ إحنا في إيه وألا في إيه؟ خنجر إيه اللي في الظلام ده.. طب عليَّ الطلاق إن ما قعدتوا يا ولاد الهرمة لتكون ليلتكو مش فايتة.. إحنا جايين هنا عشان سي عبده بكر ولا إيه؟

ملعون أبوكو كلكوا..

ويبدو أن عم جلبي لم يكن يعرف من هو مصطفى لطفي، فنظر نحوه شزرًا بعد أن عوج الطربوش وقال له:

ـ إيه قلة الأدب دي والسفالة دي.. إنت يا راجل إنت مش تشوف بتكلم مين؟ ولم ينته من عباراته إلا ورفع مصطفى لطفي مقعدًا وضرب به عم جلبي، فوقع على الأرض والدماء تنزف من رأسه، وهب صاحب المكتب كالمجنون وصرخ في وجه مصطفى لطفي، فهبده الأخير مقعدًا آخر، وظاطت القاعة ودبت الفوضى بين الجماهير، وطاح مصطفى لطفي في الجميع، ونال العبد لله من الحب جانب، فأصابني مقعد شارد في وجهي، وسقط طوغان على الأرض وهو يحاول تهدئة الجماهير، وأطلق عم بسيوني صافرته لتهدئة المباراة، وحاولت الخطابة، ولكن جسمًا صلبًا ضرب جبهتي مرة أخرى.. وساد الظلام القاعة فجأة، فلم يعد هناك إلا صوت ضرب الكراسي وصرخات الجرحى والمدهوسين تحت الأقدام، وتسللت في الظلام من بين أجسام الجماهير وخرجت إلى الميدان، ومن الميدان إلى الشارع ومن الشارع إلى حي شبرا حيث كانت تقيم عمتي هناك.

وشهر كامل لم أستطع دخول الجيزة أو أهوب نحوها. وعندما اتصلت تليفونيًا بقهوة محمد عبد الله للسؤال عن طوغان، أفهمني عم زكريا الحجاوي أنه مريض ومصاب بكسر في ضلوعه وأن إحدى أسنانه تحطمت، وهو نائم في سريره لا يستطيع مغادرة الفراش. أما

علي كامل فلم نره إلا بعد ستة أشهر. فقد كان لحسن حظه يسكن في السيدة زينب وجاءنا ومعه مشروع جديد على طريق المسيرة نحو عالم الغد السعيد، ومن أجل مجتمع الورود والخدود والشواشي العليا للانكشارية.

والنحل يا هوه!

٧. شبشب على ملوخية!

قال علي كامل وهو يرقص طربًا: حصل فرج الله يا أولاد، وسنودع أيام الشقاوة. وراح علي كامل يحكي لنا تفاصيل مشروعنا الجديد، فهناك مشروع مجلة جديدة وراءها تمويل ضخم ومستمر ولا ينقطع. وأصل الحكاية أن أحد بشوات الصعيد وقطبا من أقطاب حزب الوفد ويمتلك ألف فدان من أجود الأراضي الزراعية، الباشا الكبير اختلف مع شقيقه الأصغر ويدعى إبراهيم بك، وتطور الخلاف بين الشقيقين إلى درجة أن كلا منهما راح يشنع على الآخر ويهاجمه، وانضمت صحف الوفد إلى الشقيق الأكبر الباشا ضد الشقيق الأصغر، ولما كان الشقيق الأصغر يتصور أنه صاحب الشعبية الأكبر في الإقليم وأنه أحق من أخيه بعضوية مجلس الشيوخ وعضوية اللجنة العليا قرر الشقيق الأصغر أن يصدر مجلة للرد على مزاعم أخيه ولإجبار حزب الوفد على الاعتماد عليه بدلًا من شقيقه الباشا، الذي ليس له من المواهب إلا الألف فدان وحظائر الماشية التي اشتهر الباشا بتربيتها في أحد أقاليم الصعيد.

وأكد لنا على أن سعادة البيه الشقيق الأصغر رصد للمجلة ميزانية

٣٠ ألف جنيه وهو مبلغ كان يومئذ يكفي لبناء ناطحة سحاب على شاطئ النيل.

عندما بدأنا الانهماك في العمل سألنا علي كامل: هل وضع سعادة البيه أي مبلغ من المال تحت حساب المجلة؟ فأجاب بالنفي وأكد أن البيه سيفعل ذلك عندما نجتمع معه في الأسبوع القادم لوضع اللمسات الأخيرة على مشروع المجلة، وجاء البيه في الموعد المحدد وأدهشني منظره فقد كان أغلب البهوات الذين رأيتهم من قبل من النوع التركي الملظلظ الذين تستطيع أن تلحظ آثار النعمة عليهم من أول نظرة، بشرة بيضاء مخلوطة باللون الأحمر، ولُغْد سمين يخفي الرقبة، وصلعة نظيفة ولامعة كأنها مدهونة بالورنيش، ولكن منظر هذا البيه كان يختلف، شكله يقترب كثيرًا من شكلنا، نحيف ومتوسط الطول ولونه الخالق الناطق مثل لون العبد لله، لون العسل المخلوط بالطحينة، أو العجين المخمر، وبدلته رغم قماشها الفاخر تبدو عليه وكأنها بدلة رجل آخر.

وجلس البيه بيننا يشرح مشروعه «القومي» الكبير، فلابد من حد للزعامات التقليدية، ولابد من زحف الشباب الصاعد إلى مواقع القيادة، ونظر نحونا في حركة «قرعة» لإشعال الحماس فينا وقال: أنتم مثلًا ليه ما تمسكوش مكان التابعي وأحمد الصاوي محمد ومحمود أبو الفتح؟ وعندما طلبنا منه رصد مبلغ من المال لحساب العدد التجريبي.. رد على الفور: الفلوس مش مشكلة.. وهيكون معاكم اللي انتو محتاجينه وأكثر.. بس هو فيه اجتماع صغير بيني وبين الباشا.. وأنا مسافر بكره إن شاء الله وهغيب أسبوع في البلد وفي

الاجتماع ده هيتقرر مصير حاجات كثير قوي وإن شاء الله هديكم إشارة الانطلاق بعد ما أرجع من السفر على طول. وسافر سعادة البيه لحضور الاجتماع التاريخي وانحشرنا نحن في دكان شارع الخليج المصري نعمل بكل طاقتنا في انتظار حضور البيه الذي سيعطينا إشارة الانطلاق، وصمم علي كامل ما كيت المجلة، وأشهد أنه كان نموذجًا فريدًا بالنسبة لصحافة تلك الأيام، وكتب العبد لله قصة اسمها عودة الأسير، ورسم طوغان عدة نكت سياسية واجتماعية، وقام علي كامل بترجمة موضوع شائق عن جزيرة بالي، وجلسنا ننتظر عودة المخلص من رحلته، أخيرًا تكرم سعادة البيه واتصل بنا تليفونيًا في الدكان الذي هو في نفس الوقت مطبعة لصف الحروف باليد وأبلغنا بنبأ عودته وحدد لنا القطار الذي سيحمله بسلامة الله إلى عاصمة الوطن حيث المجلة التي ستحمله بإذن واحد أحد إلى ما فوق السحب، وحملنا ما كيت المجلة وذهبنا بربطة المعلم في محطة سكة حديد الجيزة وقطعنا ثلاث تذاكر بـ ٥ , ٤ قرش صاغ ولم يبق معنا سوى قرش تعريفة من الشلن الذي كنا نملكه، وجاء القطار أخيرًا وقفزنا إلى ديوان الدرجة الأولى واستقبلنا سعادة البيه بترحاب ممزوج بالدهشة والقلق، ويبدو أنه لم يكن يتوقع حضورنا إلى محطة السكة الحديد.

وقطعنا المسافة من الجيزة إلى القاهرة نعرض على سعادة البيه ماكيت المجلة، وراح البيه يتابع شرح علي كامل وهو يهز رأسه هزات متتابعة وإن كان وجهه ظل جامدًا لا يعبر عما يجيش في أعماقه من ردود أفعال، وأثناء العرض والشرح جاء الكمساري وفتح باب الديوان وعندما اكتشف أن الركاب الجدد على علاقة مع سعادة

البيه انحنى في أدب واعتذر بشدة، ولكنني صحت في الكمساري: إحنا معنا تذاكر وأبرزت له التذاكر، ولكن الكمساري ابتسم في ود وقال في همس أيوه بس تذاكر درجة ثالثة وانتو قاعدين في الأولى!! ودس البيه يده في جيبه على الفور وأخرج المحفظة ولكن الكمساري هتف بصوت عال: مش المعنى يا سعادة البيه.. وهو أنا حاخد فلوس برضه؟!!.. دا لو القطر كله لحساب سعادتك مفيش مانع.. ثم أغلق باب الديوان ومضى وعاد علي كامل إلى شرح الخطوط العريضة للمجلة، وبعد أن انتهى كان القطار قد وصل بنا إلى منطقة إمبابة وهنا سأله طوغان.. سعادة البيه: هانسميها إيه يا سعادة البيه؟ وأجاب البيه على الفور وكأنه كان مستعدًا للسؤال: الرقيب! ثم راح يعدد حسنات الاسم الذي اختاره، فالمجلة رقيب على الحكومة ورقيب على الأفراد ورقيب على المال العام ورقيب أيضًا على أنفسنا. فلا نقول إلا الصدق ولا نكشف إلا الزور والبهتان.

واضطر البيه إلى قطع كلامه عندما دخل القطار إلى محطة مصر وغادر البيه القطار وغادرنا معه وخرجنا من المحطة لنجد سيارة بويك ضخمة في انتظار البيه، ومد يده مصافحًا وحدد لنا موعدًا للاجتماع في منزله بكوبري القبة ثم اختفى داخل العربة ومضت به في سلام.

نحن الآن في محطة مصر، وبيننا وبين الجيزة حوالي عشرة كيلو مترات وليس في جيوبنا إلا قرش تعريفة لا يكفي لكي يسقينا شربة ماء، ورحنا نزحف على الطريق مخترقين شارع إبراهيم باشا إلى ميدان الأوبرا إلى حي عابدين، ومن عابدين إلى شارع نوبار

إلى السيدة زينب، وودعنا علي كامل وذهب إلى منزله واخترقنا ـ طوغان وأنا ـ شارع السد إلى فم الخليج إلى دير النحاس إلى كوبري عباس إلى الجيزة.. واستغرقت رحلتنا إلى الجيزة ثلاث ساعات كاملة، ومن السيدة زينب إلى كوبري عباس لم ينقطع طوغان عن رسم صورة وردية للمستقبل، المجلة دي هتنجح يا بني وكل واحد فينا يجيب عربية وهاطلع الكتاب اللي بحلم بيه، كتاب كاريكاتير يعمل هزة في مصر، هاطبع ٣٠ ألف نسخة.. النسخة بجنيه أبيع ٢٥ ألف نسخة والباقي أحتفظ به. «طوغان لم يصدر هذا الكتاب إلا بعد هذا التاريخ بـ ١٥ سنة» المهم أننا عشنا في أحلام كثيرة حتى جاء موعد الاجتماع ووصلنا بيت سعادة البيه قبل الموعد بنصف ساعة، ولذلك رحنا نلف وندور حول البيت حتى جاء الموعد فوقفنا عند الباب وضغطنا على الزر وفتح لنا شخص نوبي متين البنيان كأنه محمد علي كلاي في زمانه، وقادنا النوبي إلى حجرة واسعة تتدلى من سقفها نجفة كبيرة في حجم كنبة بلدي عمولة، وجلسنا ننتظر أكثر من نصف ساعة حتى حضر إلينا سعادة البيه يرتدي بيجامة معتبرة وشبشب لو رأته خالتي بهانة لطبخته على شوية ملوخية، وفوق البيجامة روب من الحرير الطبيعي ٥٥٠ كانيبو «طبعًا اكتشفنا هذه الأسماء والماركات بعد سنوات طويلة» وجلس البيه يعبث بحبات مسبحة من اليسر الطبيعي المطعمة بالفضة، وبعد أن شرح علي كامل خطته في العدد الأول بحيث يكون أشبه بقنبلة تنفجر في المجال الصحفي قال البيه وهو يهز ساقه اليمنى الموضوعة على ساقه اليسرى: على العموم الكلام ده سابق لأوانه دلوقت.. لأن فيه قدامنا شوية عقبات لازم

نشيلها الأول، وطلب منا أن نكون على اتصال دائم به وأن نحتفظ بحماسنا حتى يحين الوقت المناسب.

وخرجنا من بيت البيه في الواحدة والنصف ظهرًا، وقطعنا نفس الرحلة من جديد، ولكنها كانت أطول هذه المرة، واقترحت أن نواجه البيه بالمصروفات التي أنفقناها على المشروع.. علي كامل الذي وضع الماكيت أنفق خمسة جنيهات ورقًا وصورًا وصمغًا لزوم اللزق وقصًا لزوم القطع ومجلات أجنبية لزوم الاطلاع على أحدث صيحة في عالم الماكيتات، أما طوغان والعبد لله فقد أنفقنا ما لا يقل عن جنيه في المواصلات وجنيه سجاير لزوم عدل الدماغ وجنيه قهوة لزوم تهدئة الأعصاب. هذا غير الدوخة اللي دخناها خلال الشهر الأخير.. واقترح العبد لله إرسال خطاب إلى سعادة البيه نطالبه بهرش جيبه، فالأحذية من كثرة المشاوير حدثت ثقوب في نعالها والقمصان من كثرة الغسيل والكي حدثت خدوش في ياقاتها.. وقلت لهم.. اللي ينكسف من بنت عمه ما يجيبش منها عيال..

ورحنا نتصل بالبيه كل يوم صباح مساء.. وحكمة الله أن البيه في الصبح نايم وفي المساء خارج البيت وترددنا على مقهى يوديجا بشارع عماد الدين حيث كان البيه يقيم أغلب وقته ولكننا لم نعثر له على أثر، حتى ماكيت المجلة اختفى مع البيه فقد حرص في آخر لقاء على الاحتفاظ به لدراسته دراسة مستفيضة.. على حد تعبير سعادة البيه.. واقترح طوغان أن نعسكر أمام البيت حتى يخرج فنكبس عليه ونحرجه ونلقنه درسًا في احترام الناس واحترام مواعيدهم.

واقتراحات كثيرة ولكننا لم ننفذ منها شيئًا.. واكتفينا بطلبه في

التليفون ولكننا أبدا لم نعثر عليه وحكمت الأقدار على مجلة الرقيب أن تبقى في الظل وضاع شقانا على مفيش.

ولكن ما هو السبب في سعي البيه لإصدار مجلة؟ وما هو السبب في عدوله عن إصدارها؟ هل كان يعبث بنا؟ هل هي حركة تهويش قصد بها تهديد بعض الجهات؟ لابد من حل هذا اللغز الذي غمض علينا.. ولماذا اختارنا نحن الثلاثة للقيام بالدور الرئيسي في هذه اللعبة التي ليس لها معنى؟ المهم أن حيرتنا لم تستمر والسر الذي فشلنا في حله ذاع وانتشر، فقد قرأنا في جريدة وفدية نبأ رحلة مسئول وفدي كبير إلى إقليم سعادة الباشا وشقيقه سعادة البيه وبعد أن خطب المسئول الكبير في اجتماع جماهيري حافل تناول طعام العشاء على مائدة سعادة الباشا ثم عقد اجتماعًا مع الباشا وشقيقه البيه وانتهت مساعي المسئول بالنجاح، وصفت النفوس وعادت العلاقات بين الشقيقين إلى ما كانت عليه.. إذن.. تم الصلح بين الباشا والبيه وعادت المياه إلى مجاريها، أما نحن.. فإيش دخلك بين الملوك يا صعلوك؟!

والغريب أننا لم نصادف سعادة البيه بعد ذلك في أي مكان، ومرت الأيام والشهور والسنون ثم رأيت البيه في احتفال كبير أقامته هيئة التحرير بعد قيام الثورة وأسرع بالانضمام إلى هيئة التحرير وصار مندوبها في إقليمه، ووافق على مشروع قانون الإصلاح الزراعي مع أنه كان يمتلك مع شقيقه ١٠٠٠ فدان من أجود الأطيان، وعندما صافحته في الحفل ظهر على وجهه أنه لا يتذكر شيئًا على الإطلاق.. وسألني باهتمام: إنت معانا في الهيئة واللا لأ؟ فلما أجبته بالنفي

قال: ليه؟ دا احنا عندنا مشاريع كتير قوي.. سنصدر مجلة لازم تشاركنا.. ثم سألني عن طوغان وعلي كامل وقال قبل أن نفترق: أنا بتابع نجاحكم.. وسعيد قوي..

وكانت هذه المقابلة هي الأولى بعد مشروع الرقيب، أما المقابلة الأخيرة فكانت في المحكمة وسعادة البيه في قفص الاتهام والعبد لله في مقاعد الصحفيين، والتهمة الموجهة لسعادة البيه أنه أتى أفعالًا من شأنها الحض على مقاومة النظام ومحاولة الإطاحة به لصالح الرجعية العميلة والقوى الأجنبية المتآمرة وحكموا عليه بالمؤبد، ولكنهم أطلقوا سراحه بعد عدة أشهر، ولم يحتمل سعادة البيه فمات بعد شهور، ومات شقيقه الباشا بعد ذلك بسنوات... دنيا!

٨ـ مساء العندليب

كسرتنا عملية الرقيب فتفرقنا، انشغل علي كامل في وظيفته الحكومية، وتفرغ طوغان للرسم.. وراح يوزع رسومه على عدة مطبوعات، والعبد لله عمل بمجلة يملكها أحد باشوات زمان، وكان الوفد قد جاء إلى الحكم في انتخابات جرت وفاز بالأغلبية الساحقة بالرغم من دسائس القصر وحملات الصحف الموالية للقصر ضده.. وفجأة ـ والعبد لله يعمل في قسم التحقيقات الصحفية ـ أعلن الزعيم النحاس وهو في مرحلة الشيخوخة إلغاء معاهدة ٣٦، ودعا الشعب المصري إلى الكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي في منطقة القناة.

واشتعلت الحرب بالفعل، وهاجم المصريون معسكرات الجيش البريطاني، وأطلقوا النار على أفراده، وهجر الألوف من العمال المصريين أعمالهم داخل المعسكرات. وفقد الإنجليز أعصابهم فقطعوا الطريق الصحراوي على المسافرين من المصريين وخطفوا بعضهم وأبقوهم داخل المعسكرات كرهائن، وتحولت منطقة القناة إلى ساحة حرب. وأوفدتني الجريدة إلى السويس لأكون مراسلًا لها في ميدان المعركة. وسافرت إلى السويس ذات مساء من أكتوبر عام

١٩٥١. ووصلنا السويس والفجر على الأبواب.. بعد رحلة شاقة استغرقت ٦ ساعات.

كان قد سبقني إلى هناك العم حامد عبد العزيز مندوب الأهرام، فنزلت في الفندق الذي كان ينزل فيه. ثم وصل إلى السويس الزميل مصطفى البرادعي مراسل المصري. فقررنا أن نستأجر شقة في السويس للإقامة واخترنا فندق بلير كمركز قيادة لكل المراسلين الذين حضروا من القاهرة.

وذات صباح والعبد لله جالس وحده في فندق بلير، تقدم مني مواطن يرتدي جلبابًا بلديًا ويلف جسمه بعباءة صوف إمبريال سوداء ويضرب على رأسه عمامة بلدي، شال على طاقية شبيكة، ويخفي العمامة بتلفيحة صوف، ويعلق على كتفه بندقية لي أنفيلد. وبعد أن ألقى السلام على العبد لله سألني بغباء: إنت السعداوي بتاع الجرانين؟ فلما أجبت بالإيجاب قال: قوم معايا من غير مؤاخذة.. سألته: إلى أين؟ لم يجب ولم ينتظر إذنا بالجلوس فجلس على مقعد أمامي وقال: أنا حمودة وحش الجبال من غير مؤاخذة وأنا قائد كتيبة وحوش الجبال.. سمعت عنها ولّا لأ؟

كنت قد قرأت اسم كتيبة وحوش الجبال في الجرائد، ولذلك هززت له رأسي بالإيجاب. عندئذ واصل حديثه مع العبد لله: أنا معايا عيال تاكل اللحمة نية من غير مؤاخذة مشيبين الإنجليز في الكنوبة (جمع كامب) بس عاوزين واحد بتاع جرانين ينصفهم. سألته: ينصفهم إزاي؟ أجاب: يكتب عن البطولات بتاعتهم.. إحنا فينا أبطال كثير. نطق العبارة الأخيرة ثم نهض واقفًا وأشار للعبد

لله بأن أتبعه. ووجدتها فرصة لكي أتعرف على كتيبة الأبطال التي تحارب الإنجليز في الكنوبة، فنهضت وأسرعت خلفه وطوال الطريق في شارع النمسا، كان الرجال الجالسون على الأرصفة أمام الدكاكين ينهضون عند مرور حمودة ويدعونه لشرب الشاي.. وكان هو يكتفي برفع يده بالتحية على طريقة القادة والزعماء.

وصلنا أخيرًا إلى عش النسر، خرابة فسيحة محاطة بسور يكشف ما وراءه، وباب واسع خشبه متآكل، وعلى الباب يافطة عليها رسم ساذج رسمه مبيض محارة. والرسم عن شخص يرتدي ملابس كتلك التي يرتديها حمودة وهو يطعن بالسونكي أحد عساكر الإنجليز في عينه، ومع أن الطعنة في العين إلا أن الدماء كانت تسيل من بطن العسكري، وإلى جانب الرسم جملة مكتوبة بالزيت الأسود (كتيبة) وحوش الجبال لصاحبها المعلم (حمودة).. هل هذه كتيبة أم دكان؟!

المهم أننا دخلنا الخرابة من البوابة ووقعت عيني على عدة حجرات مبنية بالطوب اللَّبِن، ولم يكن في الخرابة شيء آخر. وفجأة انشقت الأرض عن رجل عجوز يحجل نحونا، وعندما اقترب من حمودة وقف وقفة زنهار كعساكر الجيش، ثم ضرب تعظيم سلام للمعلم حمودة، ثم أمره حمودة بالكراسي وعدة الشاي. وجلسنا على مقعدين متقابلين، وعلى مقربة منا كان الشاي يغلي على النار، بينما الرجل العجوز منهمك في إعداد الجوزة. وأخرج منها قطعة حشيش راح يرص منها على الجوزة. وبعد أن شفط أنفاسًا متلاحقة مد يده بالجوزة للعبد لله وقال: مساء العندليب، ثم استأنف حديثه

قائلًا: تعميرة اكسرا من غير مؤاخذة، كانوا الأول ـ ولاد الهرمة ـ يبيعوها لنا بعشرين جنيه الوقية، دلوقت بناخدها بخمسة جنيه.. حرامية ولاد كلب! وفات على العبد لله سؤال حمودة عن السبب في رخص الصنف هذه الأيام!!

ودارت علينا الجوزة المغمسة حتى شعرت بالصهد في نافوخي، عندئذ نحى المعلم حمودة الجوزة جانبًا، وهب واقفًا وصاح بصوت غليظ: اجمع. وعلى الفور خرج من العشش المتناثرة على جانب الخرابة عدد من الشبان، جميعهم في صحة جيدة، يرتدون فانلات زرقاء مثل تلك التي يرتديها عساكر المطافي، فانلات برقبة طويلة وأكمام طويلة وكلها من الصوف الثقيل، وبنطلونات صفراء، أغلب الظن أنها مسروقة من معسكرات الجيش الإنجليزي.

واصطف الجميع في طابور طويل، ثم عملوا صَفَا وانْتِبَاهْ، ثم ضربوا تعظيم سلام للمعلم حمودة ورد لهم التحية بأحسن منها، ثم قال لهم والمدفع على كتفه بعد أن أشار بإصبعه إلى العبد لله: الأفندي بتاع جرانين، ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال: مش بياع جرانين، بيكتب فيها.. وهيكتب عن الكتيبة وبطولاتها وهيسمع صوتنا للعالم كله.. عشان كده عاوزين نظهر قدامه بمظهر حلو.. مفهوم.. ورد الجميع في صوت واحد: مفهوم ياريس!! واستأنف حمودة حديثه لأفراد جيشه.. دلوقت عاوزين نتغدى وبعد الغدا هنعمل عرض عسكري بالسلاح والذخيرة ثم قال في لهجة آمرة: انصراف..

وحدثت فركشة في الطابور، بعضهم اقترب منا، والبعض الآخر

عاد إلى العشش.. وقلة قليلة راحت تتجول في الخرابة الواسعة. ثم جلس حمودة على مقربة مني ودس يده في جيبه وأخرج حفنة من عملات النقد من فئة العشرة قروش والخمسة قروش وراح ينادي: يا عيسوي.. روح هاتلنا سمك حفار واشويه.. وخد معاك المدفع.. يا رمضان روح هاتلنا طرشي وفجل ولمون.. وخد معاك مدفع.. يا فتحي.. روح هاتلنا عيش مفقع حلو.. وخد معاك مدفع.. يا سليمان روح هاتلنا شاي وسكر.. وخد معاك مدفع.. وتناول كل منهم القروش القليلة التي أعطاها له المعلم حمودة وحمل مدفعه على كتفه وانصرف في اتجاه السوق. وقلت للمعلم حمودة: هوَّ السوق جنب معسكرات الإنجليز؟ ورد المعلم حمودة في هدوء: لأ.. المعسكرات فين والسوق فين.. السوق جنبنا هنا.. عدت أسأله من جديد: أمال هياخدوا المدافع ليه؟! رد حمودة في صوت خفيض: أصل دي عالم تخاف ما تختشيش.

كانت الأصناف والكميات التي عاد بها عساكر المعلم حمودة من السوق تثبت نظرية حمودة في الناس اللي تخاف ما تختشيش.. فلم تكن الكميات التي أحضروها تناسب الفلوس التي أخذوها من حمودة.. المهم أن الجميع انشغلوا في إعداد المائدة وإحضار الماء المثلج. ونزل الجميع على المائدة كالمجانين. وبعد أن انتهى الجميع من الغداء، جلسنا نشرب الشاي.. شاي أسود محلى بكميات هائلة من السكر.. وبعد أن انتهينا من الشاي صرخ حمودة في جيشه.. اجمع بالسلاح! كان العبد لله قد شعر برغبة شديدة في النوم، فقلت للمعلم حمودة: بلاش الاستعراض النهارده.. خليه بكره أحسن.. سألني حمودة: ليه؟ أجبته: أنا عاوز أروح اللوكاندة أنام.. رد على

العبد لله قائلًا في استنكار: نوم إيه وبتاع إيه؟! هو دا وقت نوم؟! نهضت من مقعدي على الفور وقلت للمعلم حمودة: أنا مش هحارب الإنجليز.. أنا هكتب بس..

عندما رأى المعلم حمودة إصراري على مغادرة المكان، أمر جنوده بالانصراف، ونهض حاملًا مدفعه على كتفه وراح يحجل ورائي حتى تقدمني بخطوات، وقطعنا الطريق إلى الفندق في صمت أول الأمر، ثم قطعه حمودة قائلًا: من غير مؤاخذة هتكتبت عنا إمتى؟ قلت له: بس لما أشوف حاجة الأول يا معلم حمودة. قال وهو ينظر نحوي بعيون كعيون السمكة الميتة: ما أنت شفت.. قلت له: لأ أنا قصدي لما أشوف شغل.. أشوف حرب ضد الإنجليز.. هتف واثقًا من نفسه: دا أنت ياما هتشوف.. بس لما القمر يغطس.. وعندما بدا على وجهي عدم الفهم، استأنف حديثه قائلًا: أنا تشوفني هنا لما القمر يكون بدر.. لما القمر يغطس تلقاني في الجبل.. واللي خلق الخلق محسوبك اللي إنت شايفه قدامك لازم يشعللها حريقة بإذن الله، ثم فجأة نفخ نفخة حارة وطويلة وهتف: بس آه يا ناري!

سألته عما يعنيه قال: الحكومة بتاعتنا دي.. أنا يا أستاذ اللي زيي بياخد الشيء الفلاني في الجيش.. أنا قائد فرقة مش حاجة هينة.. تعرف تقوللي الحكومة بتساعدني بإيه؟! حتى السلاح اللي معانا أنا اللي بشتريه.. والأكل اللي كلناه أنا اللي دافع حقه قدامك.. مش أصول الحكومة تقول تعال يا حمودة، إنت تحارب ومالكش دعوة، فلوس إحنا حاضرين، أكل إحنا حاضرين، لبس إحنا حاضرين، ثم ضرب جبهته بكف يده وقال: بذمتك يا أستاذ يخلصك أمشي على

رجلي بالشكل دا. طب يدونا حتة عربية أستعملها وعربية أتوبيس للعيال «الفداويين».. والَّا خسارة فينا؟!

ما تكتب يا أستاذ ع الحاجات الوحشة دي!

قلت للمعلم حمودة: إنت راجل فدائي، والفدائي ده بيشتغل لله. نظر نحوي نظرة تحمل كثيرًا من المعاني وقال: إنت هتعمل زي الأفندية اللي لابسين نظارات، إنت راجل ابن بلد زينا وبتفهم، فداوي إيه اللي بيشتغل ببلاش؟! ثم أنا طالب إيه؟ أنا طالب سلاح وعربية وشوية فلوس يسندوا ظهري ضد الإنجليز، ينشروا صورتنا واحنا ماشيين دلوقت ويقولوا أهو دا القائد بتاع وحوش الجبال.. وماشي على رجله. يخلصك يا أستاذ؟! وعدت حمودة خيرًا وتخلصت من صحبته بصعوبة ودخلت غرفتي في اللوكاندة ونمت نومًا عميقًا واستيقظت على صوت طلقات رصاص راحت تمزق السكون والفضاء بين الحين والحين. ارتديت ملابسي وأسرعت بالنزول إلى الشارع. ولكن الرصاص كان قد توقف وساد الهدوء من جديد، ثم علمت بعد ذلك أن معركة قصيرة نشبت بين عساكر الشرطة وعساكر الاحتلال، وأن جنديًا واحدًا من الشرطة استشهد عند مدخل السويس، وفي اليوم التالي فوجئت وأنا على مائدة الإفطار في فندق بلير بالمعلم حمودة والمدفع على كتفه. دعوته لتناول الإفطار فجلس ثم سألته عما يقصده ورد في غيظ: خيبة تقيلة قوي، عربية إنجليزي فيها ٤ عساكر إنجليز عاوزين يعدوا فوق الهويس، راحوا ضاربين العسكري بالنار، مات، وراحو ماشيين، دا اسمه كلام؟! الذخيرة اللي طقطقوها في الهوا مش إحنا أولى بيها، لو كانوا بعتولي عربية

ساعة ما قتلوا العسكري كنت خدت الرجالة بتوعنا وطلعت جري على هناك، تصدق بالله، ما يكفيني عشر عساكر إنجليز في العسكري بتاعنا، أنا عاوز تكتب كده، لازم تكتب كده، أنا هاشتري الجورنال بكرة، وعاوز تقول كده.

وفي اليوم التالي عاتبني المعلم حمودة لأنه اشتري الجورنال ولم يجد فيه الكلام الذي أملاه، وثار ثورة عارمة عندما أفهمته بالعربي الفصيح أنني لن أكتب شيئًا إلا عن العمليات التي تقوم بها الكتيبة ضد معسكرات الجيش الإنجليزي. وصرخت في وجه حمودة قائلًا: يا حمودة اطلع روح عند المعسكرات واضرب العساكر الإنجليز وأنا هاكتب اسمك مانشيت في الصفحة الأولى. رد حمودة ببرود: إيوه يا حدق، أما أروح أحارب الإنجليز وأموت وإنت تكتب وتسترزق، فاكرني خشني أنا، إيه رأيك بقى أنا مش طالع الجبل ومش هاموت إنجليز، روح هاتلي أجدع إنجليزي هنا وأنا أدبحه قدامك!! قلت لحمودة ونظراتي إليه تحمل كثيرًا من المعاني: أنا اللي هاروح أجيبلك أجدع إنجليزي عشان تدبحه هنا؟: طب ما تشتغل إنت صحفي وأنا أبقى فدائي، إنت بتقول كلام فارغ يا حمودة، سلام عليكو. وعبثًا حاول حمودة أن يحول بيني وبين الانصراف، فقد ذهبت مسرعًا وغاضبًا. ولعل ذلك هو الذي دفعه للحضور إلى حجرتي في الفندق في الصباح الباكر. جاء لكي يودعني قبل أن يزحف برجاله نحو الجبل!!

٩ ـ الرجل الحصان

قبل قيام ثورة يوليو، وفي عام ١٩٥٠ على وجه التحديد، عملت فترة من الوقت في مجلة «الستار» التي كان يصدرها الأستاذ شفيق مرشاق، وكان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير مأمون الشناوي، والكاتب الكبير المرحوم إبراهيم الورداني، أما هيئة التحرير فكانت مكونة من أربعة: فنان الكاريكاتير المرحوم رمزي، ويوسف فكري سكرتير تحرير للمطبعة، والكاتب الصحفي الذي فقدته مصر ومهنة الصحافة المرحوم صلاح حافظ والعبد لله.

وكان على العبد لله واجب تحرير عدة أبواب بالمجلة، من بينها باب بعنوان «أغرب القضايا». وكان من عادتي أن أجلس على مكتبي في حضور رئيس التحرير مأمون الشناوي وأقوم بتأليف عدد من القضايا الغريبة التي تشد انتباه القارئ وتثير خياله، ولكنها في النهاية مجرد قصص ليس لها أصل في الواقع. وأستطيع أن أقول إن كل ما كتبته في الباب المذكور يصلح لتحويله إلى مسلسلات للتليفزيونات العربية، حيث إنها كانت تحتوي على ألوان التشويق من كر إلى فر إلى قتل بالجملة إلى رقص شرقي وهز بطن.

وذات يوم سرح خيالي إلى بعيد، كتبت تفاصيل قضية خيالية عن نزاع بين عائلتين من أكبر عائلات الصعيد وبينهما ثأر تمتد جذوره في بطن التاريخ إلى زمن طويل. ولكن الأمور تطورت بين العائلتين، عندما أحب فتى من العائلة الأولى فتاة من العائلة الثانية.. وعندما اكتشفت العائلتان هذه العلاقة الغرامية وقعت الواقعة وانطلق الرصاص وسال الدم أنهارًا وتطورت الأمور إلى أسوأ، فزحفت ميليشيات إحدى العائلتين على قرى العائلة الأخرى واحتلت أرضها وأسرت عددًا من أفرادها، وحلق خيالي بعيدًا فقلت إن هناك وسيطًا من عائلة ثالثة يقوم بالمفاوضات بين العائلتين على طريقة برنادوت كوسيط بين العرب واليهود! وأطلعت مأمون الشناوي على السطور بسرعة ثم قال بعصبية:

ـ إنت كاتب لي قصة روميو وجولييت؟!

فأجبته باسما:

ـ أيوه بس روميو وجولييت صعايدة.. ولم يضحك مأمون الشناوي للنكتة وقال:

ـ يا أخي شوف واحد محامي صاحبك هات منه قضايا حقيقية أو اتصل بيه في التليفون. ووعدت مأمون الشناوي خيرًا، على أن يبدأ هذا النشاط في الأسبوع المقبل. في الأسبوع التالي اتصلت بأحد المحامين الأصدقاء فأملاني عدة سطور عن قضية غريبة، بطلها أحد المطربين ويدعى فايد محمد فايد كانت شهرته محدودة في مصر ولكنه كان ذائع الصيت في دول الشمال الأفريقي.

وفي رحلة قام بها إلى تونس أخيرًا، أحيا خلالها عدة حفلات في العاصمة وفي سوسة وصفاقس، بعدها تشرف بمقابلة باي تونس الذي أهداه نيشانا رفيعًا مرصعًا بالذهب والماس، وعندما عاد المطرب إلى القاهرة التقى برجل كان يمد الصحف الأسبوعية الصغيرة ببعض الأخبار من هنا، وهناك مقابل مكافآت مالية صغيرة، بالإضافة إلى عمل آخر كان يقوم به إلى جانب هذا العمل، وهو بيع العطور لركاب الدرجة الثالثة في قطارات وجه بحري، وكان طويلا عريضًا متين البنيان يمسك بين أصابعه بعصا من الكريز كان يتوكأ عليها أحيانًا ويخوض بها المعارك في بعض الأحيان.

وأجرى الرجل إياه حديثًا مع المطرب ووعده بنشره في عدة صحف. وعندما وقع بصره على النيشان المرصع بالذهب والماس، أقنع المطرب بضرورة نشر النيشان مع الحديث، لكي يقتنع القراء بجدية الإنعام السامي من باي تونس تقديرًا لفن المطرب الموهوب! وعندما سأل المطرب صاحبنا إياه عن الطريقة التي يمكن نشر النيشان بها في الصحف، أجابه بأن الطريقة الوحيدة هي عمل أكليشيه للنيشان في ورشة حفر زنكوغراف، واقتنع المطرب فسلم الرجل النيشان وعشرين جنيهًا كمقدم لتغطية مصاريف الزنكوغراف والنشر، ووعده بمبلغ آخر بعد نشر الحديث في الصحف!

ومرت شهور.. ولم يظهر الحديث في الصحف وفشلت كل محاولات المطرب للعثور على الرجل والنيشان، فسارع إلى مكتب المحامي وتقدم ببلاغ إلى النيابة متهما الرجل بالنصب وسرقه الوسام، وأعجبت القضية مأمون الشناوي فأفسح لها مكانًا محترمًا بالمجلة

وكافأني على نشاطي الصحفي الكبير. وفي اليوم التالي لصدور المجلة كنت أجلس وحيدًا على مكتبي في الحجرة التي تضم صلاح حافظ ويوسف فكري أيضًا، عندما فوجئت برجل يقف أمامي طويل عريض المنكبين على رأي عادل أمام، وبيده عصا منظرها يجبر أي شخص على احترام الرجل الذي يمسك بها. وسألني الرجل بصوت أجش يشبه صوت الأسد في السيرك:

ـ إنت محمود السعدني؟ وتلعثمت في البداية ثم تمالكت نفسي ونفيت بشدة أن أكون محمود السعدني، وعندما سألني: من أكون؟ أجبته على الفور بأنني مدير التحرير، وضرب الرجل عصاه في الأرض بشدة وجلس على أقرب كرسي وأخرج من جيبه منديلًا من قماش الكاكي الذي يستعمله عساكر الجيش وعيناه تطلقان شرارًا وقال:

ـ طيب إزاي يا أستاذ يا مدير التحرير تسمح بنشر كلام فارغ زي ده يسيء إلى صحفي زيك؟ ثم ضيق ما بين حاجبيه وقال للعبد لله:

ـ زيك إزاي؟ إنت بقالك كام سنة صحفي؟ ولما أجبته بأنني صحفي منذ ثلاث سنوات فقط نهض من فوق مقعده وراح يصرخ على طريقة شجيع المولد الذي يأكل النار والعة ويخلص نفسه بنفسه من القيود والأغلال.

ـ أنا كنت صحفي قبل إنت ما تتولد، وقبل رئيس التحرير بتاعك ما يتولد، أنا اشتغلت مع طه حسين في الوادي، واشتغلت مع توفيق دياب في الجهاد، واشتغلت مع عبد القادر باشا حمزة في البلاغ

واشتغلت مع الخواجه ماكريوس في اللطايف، وبعد ده كله تكتبوا إن أنا نصاب؟!

ورحت أطيب خاطر الرجل وطلبت له فنجان قهوة سادة حسب طلبه، ولكنه طلب زجاجة إسباتس قبل القهوة، وأعطيت النصف فرنك الذي كان في جيبي للفراش لإحضار زجاجة إسباتس «ساقعة» من الدكان المقابل للمجلة، والغريب أنه وضع الزجاجة في فمه ولم يعدها إلا بعد أن أصبحت فارغة كفؤاد أم موسى، ثم تجشأ بصوت مسموع، ثم راح يرتشف من فنجان القهوة بمزاج وبشوق شديد، ثم قال بعد أن انتهى من رشف القهوة، ولم ينس أن يدق بالعصا على الأرض قبل أن يقول:

ـ ودلوقتي إيه العمل؟

وحاولت أن أبدو شجاعًا أمامه، في الوقت الذي كانت فيه كل فرائصي ترتعد.

ـ الحكاية دي بسيطة قوي وهنشوف لها حل، ثم مش دي المشكلة.
وقال الرجل الحصان وهو ينفخ من شدة الغيظ:

ـ أمال هي إيه المشكلة؟

ـ المشكلة يا سيدي إن خبرة طويلة زيك لازم تتعاون معانا.

أعجبه المدخل فاستند بذقنه على رأس العصا وقال:

ـ إزاي؟

قلت له وأنا أشرح له الصفقة:

ـ تزودنا بأخبار وطرائف وأحاديث وتبقى محرر في المجلة.

قال وقد اقترب أكثر من المكتب الذي كنت أجلس عليه:

ـ وبكام؟

قلت بدون تردد:

ـ بعشرة جنيه.

كان هذا هو مرتب العبد لله في ذلك الزمان، وكنت أعتقد أنني أغنى من عبود باشا وأكثر ثراء، من عثمان حيدر آباد، ولكن الرجل الحصان انتفض فجأة واقفًا رافعًا العصا إلى أعلى مما جعلني أرفع ذراعي فوق رأسي لأتلقى الضربة الأولى وبالطبع الضربة العاشرة أيضًا! ولكن الرجل الحصان لم يضرب ولكنه اكتفى بالكلام ـ قال صائحًا:

أنا كنت باخد عشرة جنيه، في الوادي مع طه حسين لما كانت العشرة جنيه تشتري بيت، كان أحسن فدان أرض في المنوفية بعشرين جنيه، يعني كنت أقدر اشتري فدان كل شهر، دلوقتي جاي تقول خد عشرة جنيه!

قلت له مستسلمًا:

ـ خليهم ١٥ و.. قاطعني قائلًا:

ـ خليهم ٢٠.

ـ مافيش مانع.

وأمسكت بورقة بيضاء أجريت القلم عليها وحررت عقدًا بين مدير التحرير سمير نيقولا والأستاذ حسن الشابوري المحرر الصحفي مقابل مكافأة شاملة قدرها عشرون جنيهًا شهريًا لقاء تقديم أخبار وأحاديث وطرائف لمجلة الستار. ووقعت على العقد ووقع هو الآخر وسلمت الصفحة للأستاذ الشابوري، على أن يحضر بها في الغد ليقدمها للإدارة لاعتمادها، حيث إن اليوم إجازة، وطوى الرجل الورقة ودسها في جيبه وانصرف يدق الأرض بعصاه.

في اليوم التالي وصل الأستاذ الشابوري فوجد صاحب المجلة في مكتبه وأراد أن يقابله فمنعه السكرتير، فراح يصرخ كالمجنون فسمحوا له بالدخول، ولم يفهم الرجل صاحب الجريدة شيئًا مما رواه الأستاذ الشابوري وتصور أنه مجنون، فأمهله حتى يأتي أحد رؤساء التحرير، فجلس الأستاذ الشابوري في مكتب السكرتير حتى حضر الأستاذ إبراهيم الورداني، وكان إبراهيم الورداني فنانًا رقيقًا ومسالمًا، فما إن استمع إلى القصة حتى استغرق في الضحك وقال للشابوري: إن الذي كتب معك العقد هو السعدني وهو الذي نشر الخبر. وقام الرجل وثار وهدد بسحق رأس السعدني وأكبر رأس في المجلة إذا لزم الأمر، ومن حسن الحظ أن الورداني كان يعرف الرجل من قبل، وكان يلتقي به في مكاتب بعض الصحف وفي نادي الصحفيين قبل أن يتحول النادي إلى نقابة، وكان الورداني يعلم أن الرجل فرض نفسه على عدة صحف بالتهديد والتلويح باستخدام القوة، وأنه كان يختار الصحف التي يصدرها شوام ولبنانيون ويونانيون وطلاينة وكان هؤلاء يضطرون إلى إسكاته مقابل خمسة جنيهات، وتركه الورداني في مكتبه ودخل إلى شفيق مرشاق صاحب المجلة، وأقنعه باستخدام

الرجل مقابل مكافأة قدرها ١٠ جنيهات شهرية، نظير سكوته وعدم رفع قضية على المجلة، ووافق صاحب المجلة وانتهى الإشكال أقصد الإشكال مع المجلة وليس مع العبد لله.

المهم أن الأستاذ الشابوري أو الرجل الحصان، كان يحضر كل يوم إلى المجلة في العاشرة صباحًا، يشرب الشاي والقهوة على حساب من يوجد من المحررين ثم ينصرف في الثانية عشرة ظهرًا. وكان العبد لله يذهب إلى المجلة من الواحدة ظهرًا وحتى المغرب.. وأول مرة رآني فيها مأمون الشناوي بعد هذه الحادثة صاح في وجهي:

ـ إنت ما تخرجش أبدا من المجلة وماترحش للمحامين تتصل بيهم، اقعد على المكتب وفبرك قضايا وبس كفاية المصيبة اللي إنت جبتها لنا. المهم أنني واظبت على المواعيد التي حددتها بنفسي.. أذهب إلى المجلة في الواحدة ظهرًا، وأغادر في السادسة مساء، ولكن لأن الجرة ما تسلمش في كل مرة.. فقد أخطأت في الحساب وذهبت إلى المجلة في الواحدة كالعادة، ودخلت إلى المكتبة فوجدت صلاح حافظ هناك، ورحت أمزح معه كالعادة، ولكن لاحظت اضطرابًا على وجه صلاح حافظ، فنظرت خلفي فوجدت الرجل الحصان واقفًا كالفيل ورائي، وقبل أن يبدأ أي سلام أو كلام أطلقت ساقي للريح خارجًا من المجلة في سرعة الوعل ورشاقة الغزال وانطلق هو الآخر خلفي ولكن هيهات.

كانت المجلة تشغل شقة في عمارة بشارع دوبريه وسط القاهرة وهو من الشوارع المزدحمة خصوصًا في فترة الظهيرة.. قفزت من

الرصيف إلى الرصيف المقابل كأنني رامبو متفاديًا عشرات السيارات التي كانت تمرق كالسهام على جانبي الشارع. ولشدة غيظ الأستاذ الشابوري، ولرغبته الشديدة في الانتقام منى، تعقبني في وسط الشارع، ولكن لحسن الحظ لطشته سيارة فألقت به على الأرض وكسرت ساقه، ولكني ذهبت إليه في المستشفى في صحبة صلاح حافظ وأخذت له علبة شوكولاته، وكانت ساقه في الجبس ومربوطة أعلى السرير، وصالحت عمنا الشابوري ومنحني عفوه ثم رضاه، ولم يخرج من المستشفى إلا بعد ثلاثة شهور، وكان يتوكأ على العصا التي كان يخيف بها الناس، وبعد خروجه من المستشفى بشهرين أغلقت مجلة الستار أبوابها، وانقطعت مكافأته منها، وانقطعت أخباره عني فلم تقع عيني عليه بعد ذلك في أي مكان!

١٠ـ شكة الشوكة بذنب

وإلى مجلة التحرير انتقل العبد لله حيث كان أحمد قاسم جودة يعمل في نفس الوقت رئيسًا لتحرير الجمهورية مع إبراهيم نوار وجلال الحمامصي وحسين فهمي، ولذلك عهد إليَّ بمهمة إدارة تحرير مجلة التحرير والرجوع إليه إذا اقتضت الضرورة ذلك، في تلك الأثناء شهد العبد لله مولد العديد من الصحفيين الذين اشتهروا بعد ذلك، أذكر منهم محمود المراغي والسيدة نجاح عمر ومفيد فوزي، واكتشفت أثناء تجوالي في حي الحسين جمعية تطلق على نفسها اسم «حتى شكة الشوكة بذنب» اتصلت برئيس الجمعية في صباح اليوم التالي وطلبت منه أن يسمح لي بإجراء حديث صحفي معه ورحب الرجل على الفور وحضر بنفسه إلى المجلة بعد الظهر وأجريت معه الحديث، ونشرته في العدد التالي.

ولكن رئيس الجمعية احتج بشدة لأنني وصفت الجمعية بكلمات ساخرة، ولأن الحديث كله كتب بلهجة ساخرة، ووعدت رئيس الجمعية بإجراء حديث آخر معه في اليوم التالي لأكفر عن جريمتي في الحديث السابق ووافق الرجل وحضر بالفعل وكنت قد طلبت

من الفنان أبو لمعة والفنان بيچو يرحمه الله أن يحضرا إلى الجريدة في نفس الموعد، واكتشفت أن رئيس الجمعية لا يعرف أبو لمعة وبيچو ولم يسمع بهما من قبل!

وجرى الحوار بين رئيس الجمعية من جهة والخواجا بيچو وأبو لمعة من جهة ثانية، وشعر رئيس الجمعية بعد فترة أننا نحاول السخرية منه ومن الجمعية فتوقف عن الكلام فجأة، وقال موجهًا حديثه للعبد لله:

* إذا كان في نيتك السخر ية مني أو من الجمعية فستصيبك مصيبة كبرى بإذن الله.

قلت للشيخ رئيس الجمعية:

ـ وده معقول نسخر منك يا مولانا؟!

* على العموم أنا قلت لك وإنت حر.. لو حاولت تسخر مني ح تجيلك مصيبة الأسبوع ده.

وطيبت خاطر رئيس الجمعية وانتهينا من إجراء الحديث ونشرناه في العدد التالي بعنوان «رئيس حتى شكة الشوكة بذنب يقابل الخواجا بيچو وأبو لمعة» وكان الحديث مسخرة بالطبع تجلت فيه مواهب الخواجا بيچو وأبو لمعة في فن الفرفشة والإضحاك.

وفي نفس العدد الذي ضم الحديث كتب العبد لله كلمة عن المرحوم فريد الأطرش تناولت فيه الدروز وجبل الدروز وعائلة الأطرش كلها، وفي اليوم التالي لصدور عدد مجلة التحرير استدعاني فوزي عبد الحافظ لمقابلة القائمقام أنور السادات، وتصورت أن

حديث «حتى شكة الشوكة» مع الخواجا بيچو قد أعجبه وذهبت لمقابلة القائمقام أنور السادات وعندي أمل في الحصول على مكافأة سخية أو علاوة مجزية يتحدث بذكرها الركبان والذين يمشون على الأقدام.

وعندما أصبحت أمام مكتب أنور السادات ألقيت عليه التحية ولكنه لم يرد التحية فقد كان منشغلًا بقراءة بعض الأوراق وتركني واقفًا أمامه فترة قبل أن يلقي بالأوراق جانبًا ثم أمسك بين أصابعه بالعدد الأخير من مجلة التحرير وقال بعصبية شديدة:

* إيه الكلام الفارغ اللي انت كاتبه ده؟!

وتصورت أن الذي أغضبه هو الحديث مع رئيس «حتى شكة الشوكة بذنب» فقلت له:

ـ ده موضوع خفيف لأن العدد تقيل.

* أنا بكلمك على موضوع فريد الأطراش.. إنت بتهاجم مطرب، مالك ومال الدروز؟!

حاولت الكلام ولكنه صرخ في وجهي:

* إنت موقوف..

قلت له وأنا في طريقي خارج مكتبه:

ـ طيب.

صرخ مرة أخرى بشدة وقال:

* إنت مرفوت.

لم أنطق بحرف وغادرت مكتبه وسمعت وأنا أهبط على السلالم صوت الصاغ فوزي عبد الحافظ يناديني فصعدت السلالم من جديد وقال لي الصاغ فوزي:

* القائمقام عاوزك.

وعندما هممت بالدخول منعني الصاغ فوزي قائلًا:

* خليك عندي هنا.

وجلست في مكتب الصاغ فوزي قرابة نصف الساعة قبل أن يخرج القائمقام أنور السادات فوقف فوزي ووقفت معه فنظر نحوي وهو في طريقه مسرعًا وقال:

* إنت موقوف.

وقضيت ستة أشهر موقوفًا عن العمل ممنوعًا من دخول الجريدة، ولكني أصرف مرتبي كل شهر ويصلني عدد المجلة كل أسبوع. وفجأة جاء كامل الشناوي رئيسًا لتحرير الجمهورية مع أحمد قاسم جودة والحمامصي وحسين فهمي.

وفي أول اجتماع لهيئة التحرير بعد عودة كامل الشناوي قال كامل للقائمقام أنور السادات: كان فيه عندكم هنا شاب صحفي كان ممكن الواحد يعمل معاه شغل كثير لولا أنه مات إلى رحمه الله، وتساءل القائمقام أنور السادات:

* مين الشاب اللي مات هنا ده يا كامل. وعندما ذكر له كامل الشناوي اسمي، قال السادات:

* ده عايش وزي القرد، أنا وقفته عن العمل، أصل لسانه طويل قوي. وقال له كامل الشناوي:

ـ احنا نجيبه ونقطع لسانه.

قال القائمقام.

* تضمنه يا كامل بيه؟

ـ أضمنه..

وذهبت في صباح اليوم التالي وقابلت كامل الشناوي وقضيت ساعات العمل كلها في مكتبه، وفي المساء بدأ ضيوف كامل الشناوي يتوافدون على دار الجريدة، عبد الحليم حافظ وكمال الملاخ وإحسان عبد القدوس وأحمد عطية الألفي، وخلال الحديث الممتع الذي جرى بين كامل وضيوفه دخل القائمقام أنور السادات مكتب كامل الشناوي وصافح الحاضرين جميعًا وأنا منهم وسألني في ود شديد:

* إزيك يا محمود؟

ـ الله يحفظك يا افندي.

* ح تشتغل مع كامل بيه.. بس إياك تغلط تاني ح اقص لسانك..

ثم قهقه عاليًا وقضى بعض الوقت في حجرة كامل الشناوي ثم اعتذر وانصرف.

واشتغلت مع كامل الشناوي خمس سنوات كاملة لم أخطئ فيها

إلا قليلًا، وقد أوفدني في رحلة إلى الجزائر وكنا في بداية عام ١٩٥٦ وذهبت إلى مدريد لمقابلة السنيور «انخي» وهو الاسم الحركي لمندوب جبهة التحرير الجزائرية في مدريد، ولأن العبد لله غشيم حينذاك في أسماء الفنادق وطبقاتها فقد نزلت من أوتوبيس المطار ليتلقفني شيال أسباني مدرب سحبني وراءه إلى فندق قريب، كان الفندق غاية في الأناقة والفخامة.. وعندما دخلت الحجرة وقبل أن أخلع ملابسي طرق مجهول الباب طرقات خفيفة وعندما فتحت رأيت رجلًا مهيبًا في ثياب رسمية سوداء وكأنه على وشك الذهاب إلى حفلة ساهرة وكان يجر أمامه عربة محملة بأنواع كثيرة من الفواكه وباقة ورد صغيرة وتصورت أنه محافظ مدريد قادم لتحيتي باعتباري أحد المستثمرين الكبار فقد كان في جيبي مائة وعشرون جنيهًا وهناك مبلغ مائتي جنيه في الطريق إلى العبد لله عن طريق البنك!

ولكن المحافظ ترك العربة في الحجرة وانصرف في هدوء وبعد أن حلقت ذقني وأخذت حمامًا وارتديت البدلة كاملة والكرافت السولكا التي كان يرتديها الملك فاروق يومًا ما، وهي ليست نكتة ولكنها حقيقة، فقد كلفني المرحوم كامل الشناوي بصياغة مذكرات كريم ثابت باشا المستشار الصحفي للملك فاروق بعد أن اعتذر عن عدم كتابتها هو شخصيًا بسبب مرض شديد في ذراعه يعوقه عن الكتابة.. وهي حركة ذكية من كريم ثابت فقد كنا في بداية الثورة وكان أغلب رجال العهد البائد يأملون في عودة الملك مرة أخرى، وأعتقد أن كريم ثابت من بين هؤلاء.. ولذلك قبل أن ينشر مذكراته على أن يصوغها أحد آخر بقلمه حتى إذا حدث ما لا تحمد عقباه وعاد الملك فاروق إلى عرشه مرة أخرى يكون كريم ثابت في مأمن من

الانتقام فهو لم يكتب ولكنه أجبر على الكتابة، والدليل أن المذكرات مكتوبة بأسلوب وبخط يد صحفي آخر. المهم أنني بعد أن انتهيت من كتابة المذكرات والتي قضيت من أجل كتابتها ٣٠ ساعة كاملة مع كريم ثابت باشا على مدى خمسة عشر يومًا، جاءني الباشا في آخر لقاء وقال لي:

* مذكراتك رائعة.

قاطعته قائلًا:

ـ ولكنها مذكراتك يا باشا..

* طبعًا.. طبعًا.. بس ده أسلوبك مش أسلوبي أنا، ولو أنا كتبتها ما كنتش كتبتها أحسن من كده..

وشكرت الباشا على إطرائه للعبد لله وحاولت الانصراف ولكنه قال لي:

* عاوز أقدم لك هدية.. لكن ظروفي لم تعد تسمح.. فإننا تحت الحراسة، ويصرفون لي مائة جنيه كل شهر.

فقلت له ضاحكًا:

ـ إذن أنا اللي يجب أديلك هدية

قال الباشا مداعبًا:

* سيبك من البكش ده.. أنا ح أديلك هدية وهي هدية ثمينة لأنها بتحمل ذكرى معينة..

ثم راح الباشا يحكي قصة الهدية:

* استدعاني الملك في أحد الأيام وتأخرت عليه بعض الوقت وعندما ذهبت إليه في القصر سألني عن سبب تأخري فقلت له لا تؤاخذني يا جلالة الملك فاليوم هو عيد ميلادي فاستبقاني على الغداء ثم سحبني من يدي إلى دولاب كرافتاته وقال هذه دستة كرافتات سولكا هديتي لك وصمت الباشا فترة ثم قال:

* هذه الكرافتات أنا أهديت منها ستا لأحد أصدقائي واستعملت اثنتين منها ولم يبق إلا أربع هي هديتي لك..

حاولت التملص منه لكنه أصر.. فأخذت الكرافتات وذهبت إلى كامل الشناوي وأخبرته بما جرى.. وكان كامل الشناوي يهوى الكرافتات ويعتبر من الخبراء في أنواعها وألوانها.. واختبر الكرافتات التي معي ونظر للعبد لله وقال:

* أنا مستعد أفكها لك..

سألته عن فك الكرافتات وكيف يكون.. فقال:

* الأربعة دول بـ ١٢ كرافتة أراجانس.. إيه رأيك؟

قلت للمرحوم كامل الشناوي:

ـ خلاص هي هدية لك.

ولكن كامل الشناوي رفض وقال:

ـ أنا ح آخذ اتنين وأسيبلك اتنين وحديلك ٦ كرافتات أراجانس..

وعندما حاولت مناقشته طلب مني مغادرة الغرفة لأنه مشغول بكتابة مقاله اليومي، وبالفعل أخذ كامل الشناوي كرافتتين وجاءني في اليوم التالي بنصف دستة كرافتات «أراجانس» وقد ارتديت إحدى كرافتات الملك في يوم زواجي وأعطيت الأخرى إلى محمد مبدي المحامي، فقد تزوجنا معًا في يوم واحد من شقيقتين في مدينة الإسماعيلية، وظلت هذه الكرافتة اليتيمة في حوزتي حتى تحولت إلى شيء أشبه بفردة الشراب ولقيت كرافتة الملك نهاية أليمة كما حدث لصاحبها فيما بعد!

على العموم كان حديثنا عن الفندق الفخيم في قلب مدريد عندما ارتديت ملابس كاملة ونزلت إلى بهو الفندق ودخلت إلى بار وجلست على كرسي عال ثم رحت ألتفت حولي وهالني أن أجد بين الحضور صديقًا من أصدقائي الحميمين، هذا الرجل الجالس في بار الفندق أنا أعرفه معرفة وثيقة، وأنا بالتأكيد تعرفت إليه مع زكريا الحجاوي أو كامل الشناوي أو الشيخ عبد الحميد قطامش، ولكنه يبدو الآن أكثر شيبًا وأكثر إرهاقًا من ذي قبل، ولكن أين رأيته وأين جلست معه وما اسمه؟ كل هذه المعلومات ضاعت من ذاكرتي للأسف الشديد.

لجأت إلى طريقة سخيفة لعله يتذكرني، كنت أنظر إليه فإذا تلاقت نظراته بنظراتي فتحت فمي عن ابتسامة عريضة ولكنه بعد مرتين أو ثلاث مرات بدأ يتحاشى النظر نحوي، وأغلب الظن أنه اعتقد أنني مجنون خارج لتوي من مستشفى الخانكة، ولذلك أعطاني ظهره عملًا بالمثل القائل: «الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح»

فكرت في طريقة أخرى لأنعش ذاكراته ولكني خشيت أن يسيء الظن بي فيستدعي البوليس أو يغادر الفندق كله، جلست على البار أدعك في جبهتي دعكًا شديدًا أحاول أن أعود بذاكرتي إلى الوراء وأفتش عن زوايا الماضي في محاولة للكشف عن هوية صديقي الذي التقيته بالتأكيد أكثر من ٢٠ مرة، وعشت معه ساعات طويلة، ولاحظ البارمان أن العبد لله سارح بعيدًا أو مشغول ومهموم فسألني إذا كان هناك شيء يقلقني أو أعاني من مرض مفاجئ فنفيت له أن يكون بي شيء من هذا، وحكيت له حكايتي مع صديقي الذي أعرفه حق المعرفة ولكني لا أتذكر أين ومتى وكيف رأيته أو تعرفت إليه وحتى اسمه نسيته.. فسألني أين هذا الصديق الآن؟.. أجبته بأنه يجلس بجواري وعلى مقربة مني، وأشرت له على الصديق الذي حيرني أمره ونظر الرجل إلى حيث أشرت ثم قهقه عاليًا وقال في دهشة شديدة:

* ألا تعرفه؟

سألته مندهشًا أنا الآخر:

- وهل تعرفه أنت؟

قال بلهجة ساخرة:

* طبعًا أعرفه.. والعالم كله يعرفه..

قلت:

- ومن هو؟

قال:

* إنه تايرون باور.

هتفت مشدوها.. تايرون باور. ياقوة الله.. إنه صديقي بالفعل.. عرفته في سينما مترو، جلست معه ساعات في «دماء ورمال» وأعجبت به أيما إعجاب في «حفر قناة السويس» وقضيت معه ساعات طويلة في أفلام أخرى تألق فيها تايرون باور، لقد اختلطت الحقيقة بالخيال وصارت الصورة صديقًا للعبد لله وهي مسألة تثبت تأثير السينما الأمريكية على الناس في كل مكان.. والعبد لله من جيل أدمن السينما الأمريكية في عهد سينما «ستراند» حيث كانت تعرض ثلاثة أفلام بثلاثة قروش في السهرة، ولم تكن سينما «ستراند» من دور السينما الهلس التي كانت تعرض «مغامرات شاران» و«الشبح يقابل الرجل الذئب» و«مغامرات شيتا» ولكنها كانت تعرض أفلامًا من نوع آخر.. وقدمت لجيلنا أفلامًا من نوع «ذهب مع الريح» و«لمن تدق الأجراس» و«أفضل أيام حياتنا» و«صرخة المدينة».. وقدمت لنا أبطالًا من طراز كلارك جيبل وروبرت تايلور وإدوارد جي روبرسون وولس بيري وإيميل جاننج وتايرون باور وجاري كوبر.. وقدمت لنا بطلات من نوع هيدي لامار وجريتا جاربو وانجريد برجمان وبربارا ستانويل وبيتي ديفيز.. ولكن سينما «ستراند» التي علمتنا وألهمتنا كانت السبب في حادث غير سعيد للعبد لله كدت أذهب بسببه في ستين داهية وأضيع في الكازوزة لولا كامل الشناوي الذي تدخل في الوقت المناسب لإنقاذ العبد لله.

١١ - تولوستوي في استراند

كان معنا في الجريدة زميل صحفي هو الأستاذ «سامي الرافعي» وكان مندوب الجريدة في مجلس الوزراء. وكان عبد الناصر هو رئيس المجلس في ذلك الوقت.

وحدث ذات مساء أن حضر إلى دار الجريدة متأخرًا ودخل مكتب كامل الشناوي الذي سأله عن سبب تأخيره، فأجاب الرافعي بأنه كان في السينما لمشاهده فيلم «الحب والسلام».. ثم أضاف: بيقولوا المؤلف بتاع الفيلم راجل روسي كبير!! كان «سامي الرافعي» يقصد فيلم الحرب والسلام، وكان الروسي الكبير الذي يقصده هو الكاتب العالمي تولوستوي.

ولكن زميلنا الرافعي كانت كل اهتماماته منحصرة فيما يدور داخل مجلس الوزراء.

والتقط العبد لله الخيط وقررت تدبير ملعوب بقصد الضحك والفرفشة ليس إلا، فقلت للزميل الرافعي: طب ليه ما عملتش حديث مع المؤلف الروسي الكبير ده؟ ورد الزميل قائلًا: وأنا راح ألاقيه فين؟

ثم أردف قائلًا: لكن هوه بيشتغل إيه بالضبط؟ وقلت على الفور.. دا وزير التموين في روسيا. وعقب كامل الشناوي: دا كان زمان الكلام ده، دلوقت بقي وزير الإنتاج الحربي!! وصاح الزميل الرافعي: يا ريت أقدر أعمل معاه حديث، بس هلاقيه فين؟ قلت على الفور.. هو هنا في مصر وفي زيارة سرية، لكن أنا شفته الليلادي في سينما ستراند، لأنها بتعرض فيلم تاني من تأليفه اسمه «أنا كارنينا» وأضاف كامل الشناوي: هوه ما حدش قالك؟ وهز الرافعي رأسه بالنفي.

وتدخلت مرة أخرى في الحديث فقلت للرافعي: على العموم هوه هيقابل عبد الناصر بعد بكره.. والأخبار والأهرام عملوا أحاديث وهاتتنشر يوم المقابلة. هنا أصيب الأخ الرافعي بلوثة، فقد كان يثور إلى حد الجنون إذا سبقه زميل آخر إلى خبر أو حديث، ونهض الرافعي وخرج من غرفة كامل الشناوي ثم عاد بعد قليل وسألني: طيب هوه فين دلوقت؟ فقلت له.. هوه في لوكاندة بعيدة، وأعتقد إنه في «مينا هاوس» أمسك الرافعي بالتليفون بعد استئذان كامل الشناوي.. أدار القرص طالبًا الفندق، ثم التفت نحو العبد لله وقال: اسمه إيه؟ قلت: تولوستوي.

بعد لحظات قال الرافعي من خلال سماعة التليفون: اديني مستر تولوستوي، لا أنا ما عرفش رقم الغرفة لكن هُوَّ نازل عندكو. بعد فترة صمت طويلة جاء الجواب بأنه لا يوجد أحد بهذا الاسم في الفندق. وضع الرافعي السماعة نظر نحو العبد لله نظرة تحمل بعض الشك وتحمل كثيرًا من الاستعطاف، وقال إذا كنت عارف مكانه قوللي، نصحت الأخ الرافعي بالاتصال بأحد في المخابرات العامة لمعرفة

مكانه. لزم الصمت فترة ثم أدار قرص التليفون وأجرى اتصالًا مع أحد الأشخاص، وراح يعتذر في البداية عن اتصاله في هذا الوقت المتأخر، ثم قال للمتحدث: أنا أصلي مكلف من كامل الشناوي بإجراء هذا الحديث، وأنا ما أقدرش أخالف أوامر كامل بيه.

ويبدو أن الشخص الذي اتصل به أخونا الرافعي كان يحتل منصبًا رفيعًا في المخابرات ومن النوع الذي ينام مبكرًا، ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه وبخ الرافعي بكلمتين قبل أن يغلق السكة، وجلس الرافعي يدعك في جبهته وفي رأسه، وبدأ العرق يتصبب من جبينه ثم قال لكامل الشناوي قبل أن ينهض من مكانه استعدادًا للانصراف: أنا مش هاسكت إلا لما أعمل حديث مع الراجل ده وإن شاء الله بكره الحديث هايكون على مكتب سعادتك.

في مساء اليوم التالي كان زميلنا الر افعي يقف أسفل سلم مجلس الوزراء عندما خرج جمال عبد الناصر من مكتبه والتف حوله الصحفيون يسألونه عن نتائج لقائه مع أحد المسئولين البريطانيين، ووصف عبد الناصر المقابلة بأنها كانت ودية وإيجابية، ثم راح ينزل السلم في طريقه إلى الخارج، عندما فوجئ بزميلنا الرافعي أمامه، وضحك عبد الناصر ضحكة صافية وقال له: كده يضحكوا عليك يا رافعي.. إنت موش عارف يا رافعي إن تولوستوي مات قبل إحنا ما نتولد، وصرخ الرافعي قائلًا: دا السعدني يا ريس الله يخرب بيته، هو اللي ضحك عليَّ وقاللي إن الراجل دا هنا.

انصرف عبد الناصر من مجلس الوزراء، وجلس الرافعي مع بعض المسئولين في مجلس الوزراء وكان من بينهم بالطبع ضباط مخابرات وضباط أمن، وراح الرافعي يبرر لهم فعلته، ووصف العبد لله بأنه

بتاع مقالب، وأنه بيفول على الريس، ومدام بيقول إن الريس ها يقابل تولوستوي يبقى قصده إن الريس هايموت! قبل وصول الرافعي إلى مكتب كامل الشناوي في المساء كانت الأخبار قد وصلتنا عن طريق مندوبي الصحف الأخرى، فما إن دخل مكتب كامل الشناوي حتى بادره قائلًا: الأخبار إيه يا رافعي، الريس قالك إيه؟ ورد الرافعي على الفور: على فكرة يا كامل بيه الحكاية دي مش هاتفوت على خير، الجماعة هناك زعلوا قوي وقالوا إن السعدني بِيْفَوِّلْ على سيادة الريس. وقال له كامل الشناوي على الفور.. هم اللي قالوا والَّا أنت اللي قلت؟ وضربت لخمة مع الأخ الرافعي فراح يقول كلامًا بلا معنى، وبعد فترة قصيرة غادر المكتب، ولكنه توقف قليلًا عند الباب ونظر للعبد لله وقال: على العموم اللي إنت عملته فيَّ ده هايتردلك، قالها بلهجة تهديدية مسددًا نحوي نظرة ملتهبة، وكأنه يشفع إنذاره الشفوي بحركات عملية.

بعد انصرافه لعب الفار في عب العبد لله، فقلت لكامل الشناوي.. يا كامل بيه إنت شاهد، احنا كنا بنهزر، يظهر إنها هاتنقلب جد. وسألني كامل الشناوي وهو يشعل سيجارة: وإنت خايف من إيه؟ فقلت له: إنت مش سامعه وهوه بيقول إني بافول على الريس، وقال كامل بيه بهدوء: ما يقول على كيفه وهو الرافعي كان مستشار الأمن القومي، قلت لكامل الشناوي: أنا خايف واحد من الجماعة اللي بيقعد معاهم يصدقه.. وبدت على وجه كامل الشناوي معالم الدهشة وقال: إنت خايف حقيقي، غريبة دي، أنا ما كنتش فاهم إنك ساذج للدرجة دي، ثم قال: هو أنت فاهم فيه حد أهبل تاني زي الرافعي، ثم الريس ضحك، يبقى عجبته النكتة،

فهمت بقى وإلا ما فهمتش. ولما ظهر على وجهي أنني لم أفهم، ناولني عدة أوراق وقال لي: اتفضل قوم روح مكتبك وشوفلي الموضوع ده وقوللي رأيك فيه.

وبالرغم من تأكيدات كامل الشناوي للعبد لله بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فقد قضيت فترة من الزمن أتوقع حدوث ما لا تحمد عقباه، وظل الأخ الرافعي على علاقة سيئة بالعبد لله لم تسوَّ إلا بعد فصلي من جريدة الجمهورية بعد ذلك بسنوات.

وقصة الفصل نفسها تستحق أن تروى. وكنت قد حملت رسالة من عبد القادر إسماعيل وعامر عبد الله والدكتور صفاء وآخرين من قادة الحزب الشيوعي العراقي، الذين كانوا يقيمون في دمشق في ذلك الزمان، وقد حملوني الرسالة لتوصيلها إلى جمال عبد الناصر، ولأن العبد لله لم يكن له علاقة بعبد الناصر من أي نوع، فقد سلمت الرسالة إلى المرحوم أنور السادات باعتباره رئيسا لتحرير جريدة الجمهورية. بالفعل استدعى أحد أفراد الحرس الجمهوري بالتليفون وسلمه الرسالة، ثم جلس معي بعض الوقت يستمع إلى تفاصيل الأحوال في دمشق، ثم طلب مني أن أكون مستعدًا للقيام بمسئوليات جديدة في الجريدة إلى جانب عملي.. ولما استفسرت منه عن السبب. قال.. هاتفهم بعدين. وكان المرحوم أنور السادات يعتبر العبد لله واحدًا من رجالته في الجريدة بسبب موقف لم أتعمده. وأصل الحكاية أننا فوجئنا ذات يوم بمجيء الضابط أمين شاكر، وهو من الضباط الأحرار، وأصبح له مكتب ضخم في الجريدة أضخم من مكتب كامل الشناوي، ثم راح يكتب مقالات وينشرها في الجريدة، ثم استدعاني

إلى مكتبه ذات مساء وكلفني بالسفر إلى تونس، وتغطية الأحداث التي أعقبت خلع الباي وتولي بورقيبة رئاسة الجمهورية.

وبالفعل ذهبت إلى سفارة تونس للحصول على تأشيرة الدخول، وهناك التقيت بمحض الصدفة بالصاغ فوزي عبد الحافظ سكرتير أنور السادات، الذي سألني عن سبب وجودي بالسفارة، فأبلغته بما كلفني به أمين شاكر ثم انصرف دون أن يعلق على الموضوع بشيء.

وفي بيتي تلقيت مكالمة تليفونية من الصاغ فوزي، أبلغني فيها رسالة في عدة كلمات.. البكباشي بيقولك ما تسافرش إلا إذا جالك أمر منه هُوَّ شخصيًا.

بعد مكالمة الصاغ فوزي عبد الحافظ بساعات استدعاني أمين شاكر وسألني عن موعد السفر، فاعتذرت عن عدم السفر. ولما سأل عن السبب، أبلغته بما دار بيني وبين فوزي عبد الحافظ فعقب قائلًا.. أنور السادات ساب الجورنال خلاص وأنا المسئول هنا. قلت له.. ولكن اسم أنور السادات لا يزال يحتل صدر الصحيفة كرئيس لمجلس الإدارة، فسألني في غيظ: إنت بتشتغل عند أنور السادات والا في الجريدة؟ قلت له ساخرًا: الحقيقة أنا ما بقيتش عارف الفرق، قال: إذن هتسافر بكرة، قلت له في هدوء: سأسافر بإذن الله إذا أخذت أمرًا من أنور السادات، تجاهل أمين شاكر الموضوع على غير عادته، لأنه كان شرسًا في تعامله مع المحررين. ثم راح يتحدث في موضوعات أخرى خاصة بالجريدة، وعندما استأذنت منه في الانصراف، سمح لي دون الرجوع إلى موضوع تونس.

وفوجئت بعد يومين من هذه الواقعة بالصاغ فوزي عبد الحافظ

يطلبني في التليفون ويقول لي بالحرف الواحد.. تقدر تسافر دلوقت. سألته: البكباشي اللي أمر؟ قال: طبعًا هو اللي أمر، قلت له: خلاص، على بركة الله.. وفي مساء اليوم التالي جلست مع أمين شاكر أستمع إلى تعليماته بشأن الرحلة، وقال لي قبل أن أنصرف: مش عاوزك تغيب أكثر من عشرة أيام، قلت له: قول أسبوعين.. قال لي: هم عشرة أيام ما فيش غيرهم.. إن ما جتش بعد عشرة أيام..هاشنقك في ميدان التحرير. حاولت عبثًا إفهامه أن المدة لا تكفي، فالرحلة إلى تونس عن طريق روما، لأن الملك السنوسي وقتئذ كان يمنع عبور المصريين من أجواء ليبيا أو عبر مطار طرابلس. ولكن أمين شاكر أصر. فودعته وانصرفت. واضطررت إلى تعديل مسار الرحلة، وسافرت عن طريق ليبيا ترانزيت، وسرحت في تونس مع الرئيس بورقيبة حتى مدينة الكاف على الحدود الجزائرية، وقضيت معه أيامًا في جزيرة مالطة، التي قضى فيها بعض الوقت ضيفًا بأمر سلطات الاحتلال الفرنسية، ثم ذهبت إلى روما وتبحبحت فيها عدة أيام، وعدت إلى مصر بعد شهر وفي جعبتي عدة سيناريوهات لتبرير غيابي الطويل أمام أمين شاكر. وفوجئت عند وصولي إلى مكتبه بالدور الثالث بأنه لا أثر لأمين شاكر في المبنى، فقد انتقل إلى موقع آخر!

وتحدثت مع زملائي عن واقعة فصلي من جريدة الجمهورية، وكيف اتخذوا هذا الإجراء ضدي مع أنني لم أقصر في عملي، بالإضافة إلى أن الحفاوة التي استقبلني بها أنور السادات بعد عودتي من تونس كانت تؤكد أنني أحد الرجال الذين يعتمد عليهم، وكيف أبلغني موظف الحسابات بنبأ فصلي، ما الذي فعله عبد الرحمن الخميسي لوقف هذا القرار؟

١٢ ـ القبض على المرتب

وأصل الحكاية أنني ليلة القبض على المرتب ـ مع الاعتذار للست فاطمة ـ أخذت دشا وحلقت ذقني ولبست الحتة الزفرة، فقد كان في تخطيطي أن أذهب بعد انتهاء العمل إلى كازينو الكوبري أو كازينو بديعة ـ مكان فندق شيراتون الآن ـ وكنت على موعد مع الفنان طوغان وبعض الزملاء لقضاء سهرة طيبة في مركب المعلم دقدق، وهي سهرة تنتهي غالبًا في الصباح، وغالبًا كنا نتناول طعام الإفطار في المركب قبل أن نتفرق كل إلى منزله. وكان من عادتي قطع الطريق إلى المنزل مشيًا على الأقدام، بسبب إصرار الفنان الكبير رخا على قطع الطريق مشيًا على أساس أنه رياضة وصحة.

وكان شارع النيل المتجه إلى الجيزة تتناثر على شاطئيه القصور الفخمة التي تسكنها بعثات دبلوماسية أو بشوات من بتوع زمان، وكنت أجمع ثمار المانجو الساقطة على الأرض بعد أن طابت، ثم نجلس فترة على قهوة محمد عبد الله نلتهم فيها حبات المانجو، ثم نحبس بشاي منعنع، ثم يستقل الفنان رخا سيارة أجرة توصله إلى منزله في الهرم. وليلة قبض المرتب بالذات كانت مناسبة خاصة

للغاية ـ أولًا لأن فيها قبضًا، وثانيًا لأن الفنان شكوكو كان على موعد معنا في تلك الليلة ليرافقنا في النزهة البحرية.. المهم أنني وصلت إلى دار الجريدة في السابعة مساء، واتجهت مباشرة إلى الخزانة، وما إن وقع بصر الموظف على العبد لله حتى جاء متهللًا سعيدًا مرحبًا على غير العادة، ثم قال وفمه مفشوخ عن ابتسامة بلا معنى:

ـ عندي جواب لك يا أستاذ.

رقص قلبي من شدة الفرحة، فخطاب أتسلمه من أمين الخزانة معناه علاوة جديدة أو مكافأة مجزية، ولابد أن الإدارة لديها علم بما عرضه رئيس التحرير على العبد لله من مهام جليلة. تسلمت الخطاب واحتضنته برفق وفتحته باحترام ورحت أقرأ ولم أصدق عيني في البداية، الأستاذ فلان ـ الذي هو أنا ـ نظرًا للتغييرات التي رأينا إدخالها على الجريدة في المرحلة القادمة، قررنا الاستغناء عن خدماتكم، مع تقديرنا للجهد الكبير الذي بذلتموه في المرحلة السابقة، مع العلم بأن جميع حقوقكم محفوظة، وسيتم صرف مستحقاتكم بالكامل خلال أيام، آملين أن تسنح الفرصة للتعاون معكم في المستقبل.

كان أمين الخزانة لا يزال واقفًا أمامي، وعندما تأكد أنني قرأت الخطاب. واستوعبت ما فيه، راح يعتذر وينفي عدم علمه بما فيه، ثم قال:

ـ لكن دا مش إنت لوحدك، دول سلمولي ييجي ستين جواب من ده. أرعشت حاجبي من شدة الدهشة وسألته:

ـ مين.. مين تاني؟

فالتقط الموظف رزمة الخطابات وراح يقرأ الأسماء المدونة فوق المظاريف.. بيرم التونسي، نعمان عاشور، ألفريد فرج، فلان وفلان وفلان، ثم عبد الرحمن الخميسي. قفزت كبهلوان مدرب عند سماعي لاسم الخميسي. الخميسي مفصول، ياقوة الله إذن سأجد رفيقًا طيبًا عزيزًا في رحلة الصياعة. أمسكت بسماعة التليفون وأدرت القرص طالبًا عبد الرحمن الخميسي في البيت. وجاءني صوته المميز.. ألوووه، سألني عن المكان الذي أوجد فيه، وعندما عرف أنني في مكتب موظف الخزانة لقبض المرتب، عاد يسألني:

ـ فيه فلوس؟

قلت له متخابثا:

ـ دا فلوس ومكافآت وعلاوات، حاجة تفرح!

قال:

ـ طيب أنا هالبس وهاجيلك..! استناني في مكتب كامل بيه لحد ما أجيلك.

اعتذرت للخميسي عن عدم استطاعتي انتظاره في أي مكان بالجريدة. وعندما استفسر عن السبب، أجبته:

ـ لأنهم فصلوني.

ضحك عبد الرحمن الخميسي ضحكة قصيرة وقال:

ـ يا بني بطل اللغو بتاعك ده.

شرحت له أن المسألة لا لغو فيها، وأنني فصلت بالفعل وخطاب

الفصل في يدي، وأنني سأغادر الآن إلى الجيزة. قاطعني الخميسي قائلًا:

ـ ما تتحركش من عندك.. أنا جايلك على طول.. وبعدين ثق يا بني إن فيه غلطة حصلت.. مش ممكن يرفدوا واحد زيك من جريدة مقبلة على مرحلة جديدة.. خليك عندك.. أنا جاي أتصل بالقائمقام أنور السادات، إذا ما عملش حاجة أنا هاتصل بالرئيس جمال عبد الناصر!!

كان أنور السادات قد ترك العمل في جريدة الجمهورية وأصبح رئيسًا لمجلس الأمة، وكان رئيس مجلس الإدارة الجديد اسمه عبد الرءوف نافع، وهو ضابط بحري، ولم أكن قد التقيت بعبد الرءوف نافع أو شاهدته في أي مكان، وجلست في مكتب أمين الخزانة أنتظر مجيء عبد الرحمن الخميسي، حليقًا معطرًا كعادته، واقتحم المكتب هاشا باشا وصافحني بحرارة، وفعل نفس الشيء مع كل الموجودين ثم قال لأمين الخزانة:

ـ مين الحمار اللي رفد السعدني؟!

ورد الرجل:

ـ والله.. علمي علمك يا أستاذ.

ـ هات المرتب لما أروح أشوف إيه الحكاية.

التقط الموظف مظروفًا من درج مكتبه وقال للخميسي:

ـ فيه جواب لسيادتكم اقراه الأول إذا سمحت.

مزق عبد الرحمن الخميسي الغلاف وراح يلتهم بعينيه سطور الخطاب، نفس الصيغة ونفس الكلمات. شحب وجه الخميسي وهو يقرأ الخطاب ثم صرخ في وجه الموظف قائلًا:

ـ دي قلة حيا.. دا احنا لو بنشتغل عند بديعة ما تعملش فينا كده.. وعلى العموم بركة يا جامع اللي جت منكم ما جتش منا. ثم مد يده نحو الموظف وقال له:

ـ اديني المرتب خليني أمشي بعيد عن الجو الخبيث ده.

ضرب الخميسي المرتب في جيبه وسحبني من يدي ونزل على السلالم وثبًا. عندما وصلنا إلى الدور الثاني طلبت من الخميسي أن نذهب إلى كامل الشناوي لنحيطه علمًا بما حدث، ولكن الخميسي جرني بعنف إلى السلم قائلًا بلهجة غاضبة:

ـ اتفضل معايا نروح للشعب.

كانت هناك جريدة تدعى الشعب تصدر من شارع قصر العيني في نفس المكان الذي كانت تصدر منه جريدة المصري من قبل. وانتابتني فرحة شديدة عندما سمعت اسم الشعب، فهي جريدة حديثة ولا تعاني من الأمراض المزمنة التي تعاني منها جريدة الجمهورية، ولابد أن يكون للخميسي صلات واسعة بالمسئولين بالجريدة والمشرفين عليها. وربك كبير، يقطع من هنا ويوصل من هنا، ولا بأس من استئناف العمل في جو جديد وبين زملاء جدد. وركبنا أول تاكسي صادفنا في الطريق وقال له الخميسي:

ـ اطلع بينا يا أسطى على ميدان التحرير.. وعندما أصبحنا في

ميدان التحرير، التفت السائق خلفه ونظر للخميسي ليدله على الطريق الذي يسلكه. وقال الخميسي للسائق:

ـ خش يمين.

ولما لم يكن على اليمين أي شيء إلا كوبري قصر النيل وكازينو بديعة فقد تداركت الأمر بسرعة وقلت للسائق:

ـ اطلع على طول يا عم، على قصر العيني، وصرخ الخميسي في وجهي محتدا وقال:

ـ شارع قصر العيني نهبب فيه إيه؟!

وقلت للخميسي بهدوء:

ـ إنت مش رايح الشعب؟

هز رأسه بالموافقة، فقلت له:

ـ ما هي جريدة الشعب في شارع قصر العيني.

ازداد هياج الخميسي وقال:

ـ انا مش رايح لجريدة الشعب يا بني أنا رايح للشعب المصري.

قلت للخميسي وأنا أفتح باب التاكسي:

ـ روح إنت للشعب المصري على كيفك، لكن أنا هاروح جريدة الشعب، وتركت التاكسي واختفيت في زحام ميدان التحرير. ولم أذهب إلى جريدة الشعب، ولم أذهب مثل الخميسي إلى الشعب

المصري، ولكني ذهبت إلى قهوة محمد عبد الله وحكيت ما جرى بالتفصيل للمرحوم أنور المعداوي، الذي هز رأسه كعادته هزات بطيئة متعاقبة وقال وهو يضغط على الكلمات بشدة:

ـ قلتلك ميت مرة يا محمود هذا هو مصير من يتعامل مع الناس دي، وانت ما صدقتنيش، إياك بقى تتعلم من الدرس ده.

كان أنور المعداوي يشعر بمرارة شديدة ويقاطع كل شيء في مصر. فقد تم نقله من المكتب الفني بوزارة المعارف إلى مدرسة السلحدار الابتدائية، مع أنه كان واحدًا من أعظم نقاد مصر وأشهرهم على الإطلاق.. ورفض أنور المعداوي وظيفته الجديدة وقدم استقالته فقبلت على الفور. ومنحوه معاشا صغيرًا لا يكفي لتدبير حاجاته الضرورية، ولكن الكاتب الإسلامي الفارس محمود شعبان تطوع مشكورًا بمنح أنور المعداوي مرتبه كاملًا أول كل شهر. ولكن أنور المعداوي الشامخ النافش كالطاووس لم يطق صبرًا على هذا الوضع، فسرعان ما تناوشته الأمراض من كل نوع ولم يعش طويلًا فمات قبل أن يبلغ الخمسين من العمر.

المهم أنني عدت إلى شلة الجيزة القديمة، عدت من جديد إلى العم زكريا الحجاوي والشيخ عبد الحميد قطامش، وأنور فتح الله ومحمود شعبان، واشتريت بجزء من المكافأة سيارة أوستن صغيرة قديمة دفعت فيها ١٢٠ جنيهًا، وفرح بها زكريا الحجاوي وسماها المطية، وبهذه المطية عدنا إلى رحلاتنا القديمة في ريف مصر. لم أشعر بضيق أو بقلق بسبب البطالة وقلة الموارد، وكانت ثقتي في الفرج بلا حدود وبلا نهاية، ولكن سألت الله أن يؤجل الفرج بعض

الوقت حتى أتمكن من الاستمتاع بالعالم الجديد الذي فتحه زكريا الحجاوي أمامي، مهرجانات فن شعبي وأفراح ريفية وسهرات ليلية على مصاطب الفلاحين. وحدث ذات فجرية ونحن في طريقنا إلى الجيزة قادمين من قرية العزيزية أنني فوجئت بجذع شجرة يقطع الطريق على السيارة، ونزلت أنا وزكريا من السيارة، بينما بقي عبد الحميد قطامش وأنور المعداوي بداخلها لا يدريان ما الأمر وإذا بحركة غير عادية في الحقل المجاور، وإذا بأعواد الذرة تنشق عن شبح ملثم، وإذا بصوت أجش يخرج من تحت اللثام يسألنا:

- إنتو جايين منين؟ ورد زكريا الحجاوي على الفور.

- أنا عمك زكريا الحجاوي وجاي من عند الحاج محمد أبو جندية في أم خنان وإذا بالصوت الأجش يتحول إلى صوت ودود للغاية وقال:

- طب لا مؤاخذة يا عم زكريا، اتفضلوا.. وخرج من الحقل ثلاثة رجال سحبوا الشجرة التي تسد الطريق، ثم جاءنا صوت الشبح مرة أخرى:

- اتفضلوا شاي.

ورد عليه زكريا الحجاوي وكأنه يحاضر في جامعة نيودلهي:

- لأ، أنا ما تفضلش شاي بالطريقة دي، أنا أروح بيتنا الأول، أنام واصحى، وآخذ حمام واحلق دقني، وأجيلك إن شاء الله أشرب شاي.

وركبنا السيارة وانطلقت في طريقي إلى الجيزة وأكبرنا جميعًا

شجاعة زكريا الحجاوي التي حسمت الموقف لصالحنا، ولكن زكريا ضحك ضحكة صافية من أعماقه وقال:

ـ شجاعة إيه يا عم.. دنا قلت الكلام ده وأنا (....) على روحي، البنطلون مبلول زي ما يكون فوطة ووقعت في ترعة لكن أنا لازم أعرف هُوّ مين.

وفي اليوم التالي تلكأت عندما دعاني العم زكريا للذهاب إلى قرية الشوبك. لم أكن على استعداد للوقوع مرة أخرى في براثن عصابات قطاع الطرق التي كانت منتشرة حينئذ في قرى البدرشين وقرى الجيزة. وفي اليوم الثالث تاب الله على العبد لله من رحلات العم زكريا وتاب على المطية من التوغل في أعماق الريف. فقد تلقيت مكالمة تليفونية من الأستاذ إحسان عبد القدوس يدعوني فيها للعمل معه في روز اليوسف، وكانت يومئذ ملكية خاصة للسيدة روز اليوسف!

١٣ ـ حقوق الطبع والامتياس

قبل أن نودع جريدة الجمهورية بحلوها ومرها ينبغي أن نذكر آخر مقلب ماركة العبد لله والذي كان ضحيته أحد الزملاء بدار التحرير واسمه عبد العاطي عبدون.

وأصل الحكاية أن الأستاذ عبد العاطي كان زميلًا بحكم عمله للعبد لله وذات مساء هبط عليَّ قاصدًا المشورة والرأي السديد، وعندما سألته أي مشورة وأي رأي سديد أجاب:

إنني على أعتاب قنبلة صحفية ستهتز لها الأوساط السياسية. وأنا أبدي دهشتي لعبدون قلت: كيف؟!.. على الفور قال: إنها حقيقة الثورة المصرية وأسرارها التي تذاع لأول مرة. وأنا ألبس رداء الناصح الأمين طلبت من عبد العاطي ألا يذيع أمر هذا الكتاب الخطير وأن يختص شخصي الضعيف بحقوق النشر والتوزيع لهذا السبق المعجزة.

وبدون أي تفكير أومأ عبد العاطي برأسه بالموافقة وأمسكت بالورقة والقلم لأحرر أغرب وأعجب عقد في تاريخ حركة النشر على الإطلاق!

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه في يوم كذا.. شهر كذا.. عام ١٩٥٧.. تم الاتفاق بين كل من:

أ ـ دار الهنا والشفا للطباعة والنشر ويمثلها الأستاذ محمود السعدني طرف أول.

ب ـ الأستاذ عبد العاطي عبدون المحرر الصحفي بدار الجمهورية طرف ثان.

وقد اتفق الطرفان على أن يقوم الطرف الأول بطبع ونشر كتاب الطرف الثاني «أسرار الثورة المصرية».

جـ ـ يتحمل الطرف الأول تكاليف طباعة مائة ألف نسخة من الكتاب المذكور. ويتحمل الطرف الأول أيضًا تكاليف الحملة الإعلانية في الصحف والمجلات.

د ـ تكون طباعة الغلاف على ورق فاخر ومن أربعة ألوان، على أن يجري فرز الألوان في مطابع ديكسون بإنجلترا.

هـ ـ يتعهد الطرف الأول بتوزيع الكتاب في كل من الإسكندرية وكفر الدوار ودمنهور وحوش عيسى وسحالي ونتمة والمحمودية والمعدية وإيتاي البارود وكفر غزال وأميوط، دسوق، كفر الشيخ، الزقازيق، المنصورة، أجا، طنامل، صهرجت الكبرى، صهرجت الصغرى، بنها، مسجد الخضر، ميت البيضا، سبك الضحاك، بهناي، القناطر الخيرية، الوراق، إمبابة، القاهرة، الجيزة، بني سويف، المنيا، بني مزار، أسيوط، بني قيز، الغنايم.

عند هذه النقطة انتفض المؤلف عبد العاطي غاضبًا وهب واقفًا وصاح بأعلي صوته:

ـ لا بلاش الغنايم من فضلك.. سألت عبد العاطي عن السبب، فأجابني بأن الغنايم مسقط رأسه، ولا يرغب في توزيع كتابه هناك، وعلى الفور سجلت في العقد بندا جديدًا.

ملحوظة: وتستثنى قرية الغنايم من توزيع كتاب أسرار الثورة المصرية، حيث إنها مسقط رأس المؤلف وبعدها استأنفت كتابة مواد العقد.

و ـ يجب على كل قارئ يشتري كتاب «أسرار الثورة المصرية» أن يترك عنوانه كاملًا عند الموزع الذي اشتري منه الكتاب. وأن يقوم بعد فراغه من الكتاب بكتابة رأيه فيه بمنتهى الصدق والوضوح. وتقوم دار الهنا والشفا للطباعة والنشر بإصدار كتاب ضخم يحتوي على ردود القراء تحت عنوان: «صدى أسرار الثورة المصرية في أنحاء العالم وردود الأفعال بين القراء في القرى والدساكر».

هنا هب عبد العاطي واقفًا وقال:

ـ إيه بقى اللي حشر العساكر في العملية دي؟

ـ الدساكر يا عبد العاطي مش العساكر.

ـ وإيه هية الدساكر دي؟

الدساكر دي يعني وزارة الإعلام!!

فشخ عبد العاطي فمه عن ابتسامة عريضة وقال:

ـ يعني لازم تكتبها بالوحوي «النحوي» وعلى العموم أنا صديق الحاج زهران مدير مكتب الدكتور حاتم ويمكن يصرفوا لنا إعانة للكتاب!!

ز ـ بعد نشر كتاب «صدى أسرار الثورة المصرية» يقوم الأستاذ المؤلف عبد العاطي عبدون بالرد على الصدى عن طريق تأليف كتاب آخر بعنوان «صدى الصدى» ويجري الاتفاق مع المؤلف على الأجر وعدد النسخ المطبوعة في حينه.

ح ـ تقوم دار الهنا والشفا للطباعة والنشر بتنظيم ندوة عالمية مختلطة من العرب والأجانب وتكون لندن مقر الندوة، ويحضرها سكرتير عام الأمم المتحدة ورئيس جمعية حقوق الإنسان وجمعيات الهلال الأحمر والرفق بالحيوان ومأمور مركز إمبابة ويحييها المطرب الشعبي محمد أبو دراع. ويقوم الأستاذ عبد العاطي بافتتاح الندوة بكلمة لتحية السادة الذين لبوا الدعوة.

ط ـ إذا وقع أي هجوم على الأستاذ عبد العاطي مؤلف «أسرار الثورة المصرية» أثناء عقد الندوة أو بعدها سواء من القراء أو النقاد أو المراقبين، تقوم دار الهنا والشفا للطباعة والنشر بحماية الأستاذ بكل الوسائل المتوافرة، وتخصص له طائرة خاصة طراز «فايكونت» لتنقلاته بين القارات.

ي ـ يتقاضى الأستاذ المؤلف مبلغ ألف دولار عن كل ليلة يقضيها في الخارج للاشتراك في الندوات أو لعمل مقابلات صحفية خارج مصر، سواء حول الكتاب، أو حول غيره من الموضوعات التي تستأثر باهتمام الجماهير في مصر والخارج.. ويكون الدفع نقدًا ويومًا بعد

يوم، وتتولى دار الهنا للطباعة والنشر تسوية الضرائب المطلوبة منه عن بدل السفر والإقامة، كما يخصص له خادم وسكرتير خاص، ومترجم فوري، يشترط فيه إجادة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية إلى جانب العربية!

وبعدها استأنفت كتابة بنود العقد.

ك ـ يحصل المؤلف الأستاذ عبد العاطي عبدون على خمسين في المائة من سعر الغلاف ويتقاضى مبلغ خمسمائة جنيه مصري عند توقيع العقد.

ك ـ مكرر: يقوم الطرف الأول بترجمة كتاب عبد العاطي عبدون المحرر الصحفي إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ويقوم الأستاذ محمد محجوب بالترجمة إلى الإنجليزية والأستاذ إبراهيم موسى بالترجمة إلى الفرنسية، وحيث إن أسرار الثورة المصرية من الكتب التي ستحدث هزة في العالم، وسيكون محل جدل شديد بين رجال السياسة والفن والرياضة من الآن وإلى منتصف القرن الواحد والعشرين، لذا يعطى للأساتذة المترجمين سعر خاص عبارة عن مائة جنيه عن كل ألف كلمة.

ل ـ تتعهد دار الهنا والشفا للطباعة والنشر بالحصول على مقدمة للكتاب من الرئيس البطل جمال عبد الناصر إذا كانت ظروفه تسمح بذلك، فإذا لم تكن تسمح فتكون المقدمة بقلم الصاغ كمال الدين حسين حفظه الله.

أخيرًا.. هذا العقد ملزم للطرفين وفي حالة وقوع أي خلاف بينهما

تكون محاكم القاهرة مختصة بفض النزاع بالنسبة للنسخة العربية، وتكون محاكم لندن هي المختصة بالنسبة للنسخة الإنجليزية، أما الخلاف حول النسخة الفرنسية فيكون من اختصاص محاكم باريس.

* * *

عندما انتهيت من كتابة العقد التاريخي، راح المؤلف يقرأ العقد، وتوقف فجأة عند بند من البنود.

وقال:

ـ إحنا ما اتفقناش من غير مؤاخذه على فلوس النسخة الإنجليزي والنسخة الفرنساوي.

قلت لعبد العاطي:

ـ هذا عقد آخر، وسيوقعه معك السيد مدير عام الترجمة بدار الهنا والشفا للطبع والنشر.

عندئذ واصل المؤلف عبد العاطي قراءة العقد ثم أمسك بالقلم ووقع العقد وكتب التاريخ أسفل التوقيع، ثم وقف وصافحني، ثم استأذن في الانصراف، ولكنني طلبت منه أن ينتظر قليلًا، وخرجت من مكتبي إلى صالة التحرير، واتفقت مع المصور أحمد سليمان على أن يأتي بعد قليل ويقتحم حجرتي ويصافحني بحرارة ويعانقني مهنئًا وأن يفعل نفس الشيء مع عبد العاطي، ثم يلتقط لنا صورة وأنا أصافحه باليد اليمني وعقد الاتفاق في اليد اليسرى، وعندما عدت إلى مكتبي وجدت عبد العاطي قلقًا، ثم طلب مني نسخة من العقد،

وأكدت له أن النسخة ستكون عنده في صباح الغد، وبينما وقف يستأذن في الخروج لأن لديه عملًا عليه أن يؤديه خارج الجريدة، اقتحم المكتب المصور أحمد سليمان وراح يعانقني ويقبلني مهنئًا بالنجاح الكبير الذي حققته في إبرام العقد مع المؤلف الكبير الأستاذ عبد العاطي عبدون، ثم فعل نفس الشيء مع الأستاذ عبد العاطي احتضنه وقبله ثم قال له:

ـ أنا لن أهنئك، ولكني سأهنئ دار النشر لأن ما أنجزته هو ضربة معلم ستحقق لها الكثير، أما أنت فكان بإمكانك طبع كتابك في أي مكان في العالم.

وانشرح صدر عبد العاطي وبدا عليه السرور والارتياح، ثم طلبت من أحمد سليمان أمام الأستاذ عبد العاطي وبحضور الأستاذ محمد محجوب أن يلتقط لنا صورة تذكارية لكي نستعين بها في حملتنا الإعلانية عن الكتاب، والتقط لنا أحمد سليمان عدة صور مع المؤلف بعضها للمؤلف مع الناشر الذي هو العبد لله وبعضها للمؤلف مع المترجم الذي هو الأستاذ محمد محجوب وبعضها للمؤلف وهو يتوسط الناشر والمترجم. وفي المساء سلمني أحمد سليمان الصور التذكارية فأرفقتها بالعقد، وأرفقت العقد والصور بأصول الكتاب وانتظرت حتى جاء كامل الشناوي إلى مكتبه ووضعت الدوسية كاملًا أمامه، ونظر إليه كامل الشناوي نظرته الذكية الشقية الفاحصة وقال:

ـ إيه ده؟

أجبته:

ـ دا ورق لازم تقرؤه.

فقال محتجًا:

ـ هاقرا ده كله.. إنت يا بني ربنا بعتك علشان تعذبني، قوللي فيه إيه وخلصني. حكيت لكامل الشناوي الحكاية من طقطق لسلامو عليكم وضحك حتى اهتز جسمه كله، ثم سعل بشدة ثم أطفأ السيجارة التي كانت مشتعلة بين أصابعه وقال:

ـ هذه ضربة قاضية وقد تخلصنا من هذا الوباء.

استأذنته في الحصول على إجازة لمدة ثلاثة أيام. فقال لي:

ـ ليه يا بني إنت رايح فين؟ مسافر أوروبا؟ فقلت له:

ـ أنا تعبان وعاوز أستريح شوية فقال: يوم واحد إجازة فقط.

فقلت:

ـ يومين

فقال: زي بعضه، خلاص يومين.

قضيت اليوم التالي في البيت لم أبرحه ولم أتصل تليفونيا بأي أحد، وفي اليوم الثاني من الإجازة طلبت الأستاذ محمد محجوب الذي بادرني قائلًا:

ـ إنت فين.

أجبته: أنا نايم.

فقال: يعني إنت تشعللها نار وتنام.

سألته: إيه اللي حصل؟

وعرفت من محجوب أن كامل الشناوي وضع الملف على مكتب أمين شاكر.. وقرأ أمين شاكر العقد ولم يصدق نفسه. وعندما عرف أسلوب عبد العاطي ومواهبه الخفية أصدر قرارًا بوقفه عن العمل وإحالته إلى اللجنة الثلاثية لفصله من الجريدة.

ودخلت الجمهورية في اليوم التالي دخول الجنرال زوكوف برلين بعد غزوها ولكن هذا النصر لم يدم طويلًا، فلم يلبث أمين شاكر إلا قليلًا حتى ترك الجريدة وعاد عبد العاطي من جديد، وكان أول ما فعله أنه جاء إلى مكتبي ووقف يحدق في وجهي بعض الوقت ثم قال:

ـ على العموم إنت بتعمل مقالب، لكن أنا هوريك المقالب شكلها إيه، وهانشوف مين فينا اللي حا يصرخ ويقول آي، لأني أنا هوريك المقالب اللي على أصلها وبعدين إوعى تفتكر إن أنا كلت المقلب، أنا كنت فاهم الفولة وواخدك على قد عقلك، ثم أمسك ذقنه بأصابعه وقال:

ـ وحياة دي لأخليك تقول ياريت اللي جرى ما كان.

وقلت لعبد العاطي:

ـ شوف يا عبد العاطي تقف بأدبك أهلا وسهلًا، تغلط أقولك وريني عرض كتافك. وقال عبد العاطي بصوت مرتعش يحمل بين طياته نبرة تهديد:

ـ وكمان بتطردني من مكتبك.. طيب يا أستاذ يابتاع المقالب

ياللي فاهم نفسك حدق.. ثم انطلق خارجًا، وفي الحقيقة لم أهتم بتهديداته، فقد كان غبيًا وقليل الحيلة، وكان أقصى ما يستطيعه هو الوشاية بالعبد لله عند أجهزة الأمن، ولم يعمر عبد العاطي كثيرًا في الجريدة، فسرعان ما قاده غروره إلى حتفه.

وأصل الحكاية أن المخابرات المصرية ألقت القبض على خلية جواسيس تعمل لحساب المخابرات البريطانية، وقامت المخابرات المصرية بإغلاق الشقة التي كان يقيم فيها الجواسيس وختمتها بالشمع الأحمر ومنعت دخولها أو الاقتراب منها، ولكن عبد العاطي الذي كان على علاقة بضابط بالمخابرات العامة برتبة رائد تصور أنه فوق القانون.

فاصطحب معه أحد المصورين وفتح شقة الجواسيس بعد أن أبلغ المخبر الذي يحرس الشقة أن معه إذنًا من المخابرات العامة بفتحها، وعندما علمت المخابرات بنبأ فتح الشقة ألقت القبض على عبد العاطي وتم فصله من الجريدة، وفي البداية افتتح بالمكافأة التي حصل عليها عن مدة الخدمة محلًا لبيع الفول المدمس بعابدين، ولكنه اضطر إلى إغلاقه بعد فترة وبعد أن قضى على قيمة المكافأة، وصار بلا محل وبلا أموال، اضطر عبد العاطي إلى الاشتغال كعامل في محل منجد بالجيزة، وحدث أنه أراد الزواج من خادمة كانت تتردد على دكان المنجد، لزوم تنجيد بعض الأغطية والمخدات، ووافقت البنت على الزواج من عبد العاطي بشرط الحصول على موافقة مخدومها الذي كان يعمل مستشارًا في محاكم الاستئناف.. فذهب عبد العاطي إلى بيت المستشار وقابله وطلب منه يد الخادمة، وأراد

المستشار أن يطمئن على مستقبل خادمته، فراح يمطر عبد العاطي بأسئلة حول عمله وبيته وقدرته المالية، ولكن عبد العاطي تهرب من الإجابة عن حالته الحاضرة، وراح يحكي للمستشار عن دوره في الثورة وعن كتابه «أسرار الثورة المصرية» وعرض على المستشار بعض أعماله الصحفية في جريدة الجمهورية وفي مجلة التحرير، لكن المستشار المتمرس وعد عبد العاطي بالموافقة على الزواج إذا جاءه بعقد شقة لائقة ووثيقة تثبت أن عبد العاطي يعمل في مكان ما وبمرتب ثابت، وكان هذا الشرط سببًا في عدم عودة عبد العاطي مرة أخرى إلى بيت المستشار، وحتى دكان المنجد لم يحتمل بلادة عبد العاطي ولا شغفه بالحديث عن أمجاده في مجال الصحافة والسياسة والحرب، فاستغنى عن خدماته، ولم يشاهد عبد العاطي بعد ذلك في أي مكان، يبدو أنه لم يحتمل السقوط فمات، وهناك احتمال كبير أنه يقيم الآن في مكان ما ويمارس عملًا ما، وربما باسم آخر، وربما يفكر الآن في إصدار طبعة جديدة لكتابه المعجزة «أسرار الثورة المصرية» حقوق الطبع والامتياس محفوظة لصاحب القسمة والنصيب!

١٤ـ ولا عزاء للمغفلين

بعد مرور أسبوع واحد على العمل مع إحسان عبد القدوس بروز اليوسف، اكتشفت أنني أصبحت أهدأ أعصابًا وأروق بالا وسعيدًا على نحو ما. لم تكن هذه حالتي أيام العمل بالجمهورية.

كانت هناك معركة يومية بيني وبين الزملاء والإدارة، بعكس روز اليوسف كل واحد يعرف عمله ويعرف طريقه بلا تعقيد. ووجدت لدي وقتًا كافيًا لممارسة هوايتي في تدبير المقالب البريئة للآخرين. في بداية الأمر كنت أدبر مقالب من النوع الثقيل الذي يسبب أضرارًا شديدة ولكن بعد عشرتي مع كامل الشناوي تعلمت كيف تكون المقالب الشيك.

وكان أشهر مقلب دبرته في بدايات العمر مع أديب شاب يدعى «أ.ن.ح» جاء به يوسف السباعي ودخل مكتب العبد لله بمجلة التحرير.. وقال يوسف بلهجته الودود: يا محمود اكتب مقدمة للشاب ده. وكان مع الشاب مسودة كتاب يضم عدة قصص قصيرة والكتاب يحمل عنوان «في سبيل الحياة» وعندما قرأت أول قصة انتابتني حالة من الهيستريا بدأت بموجة من الضحك أعقبتها موجة

من السعال. كانت أول قصة تبدأ هكذا.. «يا رجال الفضيلة.. إن زوجتي بالحديقة.. إنها في الحديقة» وكانت القصة الثانية تبدأ هكذا.. «يابوليس الآداب إن زوجتي بالحديقة.. إنها في الحديقة» وكانت القصص الثالثة والرابعة والخامسة تمضي على هذا النحو «إن زوجتي بالحديقة.. إنها في الحديقة» والشيء الوحيد الذي يتغير هو الجهة التي يستغيث بها الكاتب، فمن بوليس الآداب إلى رجال الفضيلة إلى علماء الأزهر إلى الشعب المصري، ولم أعرف لماذا فات على المؤلف استدعاء البوليس الدولي وقوات حفظ السلام وقوات عاصفة الصحراء؟!

وكتبت مقدمة للأديب الواعد بدأت هكذا.. «هذا كاتب متقدم على الفصيلة الأولى مندفع نحو الشفق مضروب على قفاه» وعشر صفحات من هذا النوع «المترامي في اللانهائي المتوازن مع الشواشي العليا للبرجوازية المتحالفة مع الإردوازية المصنوعة من عجين أصفر شفاف» وأنهيت المقدمة بتقرير للكاتب الواعد «وهذا الكاتب ينبغي تكريمه برجمه بكتل الذهب والفضة ليكون عبرة للآخرين حتى لا يفكر أحد مثله في الكتابة.. لأن هذا النوع من الكتابات الساحرة يمكن أن ينقلب سحرها فيقتل قارئها وبائعها وحاملها وطابعها، مع أن الزمان لوا أنصف وعدل لكان القتل من نصيب كاتبها.. فهذا هو الجزاء الوحيد لمن يرتفع بفنه إلى عنان السماء فيكون له المسير والمصير والعصير أيضًا.

وتصورت أن الكاتب الواعد إياه عندما يقرأ مثل هذا الكلام الفارغ سيكتشف أن كاتبه رجل معتوه وأنه سيمزق الأوراق وينثرها في الهواء.

المهم أن الكاتب الفاضل عاد بعد أيام وتناول المقدمة وفرح بها فرحًا شديدًا وحملها معه وانصرف مسرعًا من دار المجلة، ومرت أيام وأسابيع.. وذات مساء وأنا خارج من دار سينما مترو سمعت نداءات من باعة الصحف كلها تصرخ بالصوت الحياني اقرأ كتاب «في سبيل الحياة»، مقدمة للكاتب الكبير محمود الصعيدي. نسيت أن أقول لكم إنني بعد أن انتهيت من تدبيج المقدمة الخالدة وقعت تحتها باسم محمود الصعيدي عضو جماعة كبار الأدباء. واشتريت نسخة من الكتاب دفعت فيها عشرة قروش كانت تكفي وقتئذ لشراء نسخة من كتاب طه حسين، وذهبت بها إلى دار الجمهورية وقدمتها للأستاذ كامل الشناوي، الذي استغرق في نوبة من الضحك أمسك بعدها سماعة التليفون وراح يتصل بكل من يعرفه طالبًا منه شراء نسخة من كتاب «في سبيل الحياة» وقراءة مقدمة الكاتب الكبير محمود الصعيدي!

ولا شك أن كامل الشناوي الذي كان على علاقة شخصية بنصف شعب مصر قد نجح في لفت الأنظار إلى الكتاب الذي بيعت كل نسخه الألف في يومين اثنين، وكانت فضيحة دفعت المرحوم يوسف السباعي إلى كتابة مقال «مطلوب قانون لحماية المغفلين من محمود السعدني» ولم يدرك الكاتب الواعد أن المقدمة التي كتبها محمود الصعيدي هي مجرد مقلب من الصحفي محمود السعدني إلا بعد أن قرأ مقال يوسف السباعي فجاء ثائرًا متذمرًا، ولكن الزميل الفنان حسن عثمان ـ مد الله في عمره ـ أقنعه بأنه حدث خطأ ما فذهبت مقدمة الصعيدي لكتابه وذهبت مقدمة السعدني لكتاب آخر وهي غلطة سببها سوء الخط ووعدناه بمقدمة جديدة لكتابه الجديد فشكرنا واعتذر لنا عن سوء ظنه.

ولقد شجعني إعجاب كامل الشناوي بالمقلب إياه إلى تدبير مقلب لكامل الشناوي نفسه، كان كامل الشناوي من أكرم خلق الله.. وكان يجلس على مائدته كل مساء دستة من الأصدقاء بينهم المطرب المشهور والملحن المعروف والرأسمالي الكبير والصحفي الصاعد والأديب الشاب والوزير السابق والمسئول الحالي.. ولكنه كان يصر دائمًا على دفع الحساب وكان يضطر أحيانًا إلى الاقتراض من البنوك لتسديد الفواتير، وكان يرفض بشدة أن يتولى أحد آخر دفع الحساب في حضرته، وفي بعض الليالي كان يسهر في مكتبه بالجريدة وكان يتردد عليه يوميًا عشرات من الصحفيين الشباب والأدباء الصاعدين والفنانين والموسيقيين، وكان يكتب مقالاته وسط هذا الجو المزدحم المخنوق بأنفاس الناس ودخان سجائرهم، وذات مساء رفعت سماعة التليفون واتصلت بمحل أبو شقرة الكبابجي، وقلدت صوت كامل الشناوي وطلبت خمسة أجواز من الحمام وجوزين من الفراخ المشوية وخمسة أرطال من الكباب ومثلها من الكفتة مع مستلزماته من العيش والسلاطات. ثم اتصلت بمحلات الشيمي وطلبت نفس المقطوعية، ثم اتصلت بمحلات الخميس وطلبت ملوخية بالأرانب وبطيخة وعشاء يكفي لعشرة أشخاص، ثم اتصلت بالحاتي وفعلت نفس الشيء، وجلست في مكتب كامل الشناوي أنتظر وكأن شيئًا لم يكن وبراءة الأطفال في عين العبد لله! وبدأت الصواني تنهال على مكتب كامل الشناوي صواني كباب وصواني كفتة وصواني ملوخية بالأرانب وصواني كبدة وكلاوي وصواني فراخ وصواني حمام، كميات هائلة من اللحوم والطيور تكفي قبيلة من قبائل الجاهلية، وفي كل مرة يضرب كامل الشناوي كفا بكف ويصرخ في وجه

حامل الصواني.. من اللي أمركم بده؟ وكان الكل يؤكد أن كامل بيه الشناوي هو الذي أمر بإحضار المأكولات، ويضطر كامل بيه إلى الدفع، ولم يجد مفرًا من استدعاء جميع المحررين وجميع العمال وجانبًا من القراء لالتهام ما لذ وطاب. وعرف كامل الشناوي بعد فترة أن العبد لله هو الذي دبر المقلب إياه وما أشد دهشتي عندما غضب كامل الشناوي غضبًا شديدًا وقاطعني لمدة أسبوعين، ثم لقنني درسًا بليغًا وضربني مقلبًا لم يتمه، ولكنه كان رسالة واضحة حتى لا أعيد ممارسة مقالبي معه هو بالذات!

ولكن المقلب الذي دبرته في روز اليوسف لم أسع إليه ولم أبحث عنه ولكنه جاءني وأنا جالس في صالة التحرير مع الفنان المرحوم جمال كامل والفنان أبو العينين والفنان حسن فؤاد والفنان بهجت عثمان وآخرين. فجأة دق جرس التليفون وكان المتحدث هو الأستاذ سعد مكاوي القصاص المعروف، وهو رجل مهذب وخجول ولا يعرف المزاح، وأبلغني بأنه أرسل لي موهبة شابة وجديدة في عالم الغناء، وأنه يتصور أنني قادر على المساهمة في شق الطريق أمام صاحب الموهبة، وشكرني مقدمًا على الجهد الذي سأبذله في هذا المقام، وبعد قليل جاء أحد السعاة بكارت من سعد مكاوي وبه توصية منه لصاحب الموهبة.

وبعد قليل دخل شاب أقرع أعمش نحيف قصير يشبه تكوينه الجسماني تكوين الممثل الراحل عبد السلام محمد، بالإضافة إلى مئات من البثور والدمامل تغطي وجهه، وتصورت أن صاحب الموهبة الجديدة عبقري في القصة أو الرواية وربما في الموسيقى،

وربما هو عالم شاب في الفيزياء، وربما كان مشروع عالم في طريقه إلى اختراع القنبلة الذرية، كل هذا وارد وممكن ولكنني فوجئت بأنه مطرب جديد، وأكثر من ذلك إيمانه الشديد بأنه سيكون منافسًا كبيرًا لعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وربما للست أم كلثوم. دمامل ومطرب..؟! هذا هو المستحيل!

تحركت على الفور غريزة المقالب في العبد لله، طلبت من المطرب الجديد أن يسمعني صوته فأطرق برأسه خجلًا وقال بصوت هامس.. أنا أصلي بنكسف. طلبت منه الوقوف ووجهه للحائط والغناء حتى نحكم له أو عليه، وطلبت من الجميع أن ينصتوا وقام بالفعل ووضع وجهه في الحائط وبدأ يغني أغنية لفريد الأطرش من تلحين مدحت عاصم، كان يغني للداخل فلا يسمعه أحد إلا من كان على بعد عدة سنتيمترات من مكانه. طلبت منه أن يرفع صوته فحاول لكنه فشل. مددت يدي ولزقته على قفاه فانتفض غاضبًا ومحتجًا، صرخت في وجهه يبقى كدة هتفشل ولا يمكن أن تحقق أي نجاح فسأل عن السبب فقلت له هذا اختبار القفا! أراد بعض التوضيح فقلت له أنت الآن منافس لعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ، وأنت رجل خجول بطبعك وقد يعمد هؤلاء الكبار إلى دس أحد الأفراد ليلزقك على قفاك لكي تتوقف عن الغناء وتهجره وتترك الميدان فسيحًا أمام هؤلاء، فهل تتوقف؟ أم تواصل الغناء؟ فقال.. أواصل الغناء قلت: إذن غنِّ.. فعاد يغني أغنية لأسمهان «يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي جرالي» دلقت على قفاه كوب ماء مخلوط بالألوان من مخلفات جمال كامل، توقف عن الغناء محتجًا فقلت له ده اختبار المية فلما اطمأن إلى أنها مراحل عملية لاختياره كمطرب

من مطربي المستقبل، انتقل إلى الغناء مرة ثالثة ورابعة وخامسة وفي كل مرة كنت أجرب معه اختبارًا مختلفًا حتى وصل إلى اختبار الشلوت، فقد ضربته بالشلوت فانكفأ على وجهه على أرض الحجرة بينما كان جمال كامل ينبطح هو الآخر ويمسك أحشاءه بيديه، أما الفنان بهجت فقد هرب من الحجرة واستدعى كل من كان في الدار، أما أبو العينين فقد دخل حجرة إحسان عبد القدوس وجاء به من يده ليتفرج على آخر ضحايا محمود السعدني. قدمت إحسان عبد القدوس للمطرب الشاب على أنه أحمد بدرخان المخرج وقدمت له ورقة بيضاء على أنها عقد للقيام ببطولة ثلاثة أفلام.

لم يتمالك إحسان نفسه فقال لي وهو يغادر الحجرة على عجل: حرام عليك ده راجل غلبان. قلت له ده مطرب، بعد أن تمت جميع الاختبارات وحكمنا له بمستقبل زاهر سعيد بإذن الله، كتبت له كارت توصية للسيد مدير الضمان الاجتماعي بوزارة الخارجية ونصحته بالتوجه غدًا إلى وزارة الخارجية بميدان التحرير لمقابلة سعادة مدير الضمان الاجتماعي، لكي يفتح الطريق أمامه في الإذاعة إلى المجد والشهرة والصيت العريض، ووضعت الكارت في مظروف من مظاريف روز اليوسف، وطلبت منه أن يخبرني أولًا بأول عن الخطوات التي سيقطعها في عالم الفن والشهرة.

كانت الأحوال في مصر في ذلك الحين قلقة وغير مستقرة، وكانت المعركة قد بدأت تتصاعد بشدة بين حكومة الثورة في القاهرة ونظام عبد الكريم قاسم في بغداد، وكانت كل المباني الحكومية تخضع لرقابة شديدة، وكان يجري تفتيش الزوار قبل الدخول. في

وسط هذا الجو ذهب المطرب الشاب إلى وزارة الخارجية وطلب مقابلة مدير الضمان الاجتماعي في الوزارة.. ولما كان شكله يبعث على الريبة كما أن الشخص الذي يريد مقابلته لا وجود له في الوزارة فقد ساقوه إلى مكتب الأمن، فلما أخبرهم بأنه مطرب تأكدوا أنه إما مجنون أو إرهابي، ففتشوه وسألوه عن بطاقته ولكنه لم يكن يحمل أي شيء فأحالوه إلى مكتب المباحث العامة بلاظوغلي واختفى هناك ثلاثة أيام خرج بعدها إلى دار روز اليوسف لمقابلتي، فقد تصور أن هناك خطأ ما.

عندما رأيته أشفقت عليه بشدة فقد كان قفاه مثل قفا مطرب الأخبار، والإجهاد الشديد يبدو عليه. لقد أثر الحادث في نفسه تأثيرًا شديدًا ولم يكن يتصور أن يعامل على هذا النحو بلا ذنب جناه. وبعد أن شرب القهوة طلب مني كارتًا آخر للسيد مدير الضمان الاجتماعي بوزارة الخارجية وبشرط أن أحدد له موعدًا مع المدير بالتليفون، واتصلت بالفعل تليفونيًا بصديق بالجيزة الحاج إبراهيم نافع، وطلبت منه موعدا للفنان الشاب وحكيت للحاج إبراهيم ما جرى له على يد رجال الأمن الأشداء وحددت الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي للمقابلة في مكتب المدير بوزارة الخارجية بميدان التحرير، وفرح الفنان الشاب فرحًا شديدًا وتناول الكارت بحرص شديد ووعدني بأن يخبرني بما تم في المقابلة بعد خروجه من مكتب المدير وقال لي جمال كامل بعد انصراف المطرب: يا محمود في المرة الأولى كان مقلبًا وفي هذه المرة أنت ترتكب جريمة. وقلت لجمال كامل.. يا عم جمال لاعزاء للمغفلين وأقول لكم في الحقيقة وفي الواقع إن العبد لله لم يعرف حتى هذه اللحظة ما حدث للمطرب الشاب الصاعد

الواعد لأنني بعد يومين فقط من لقائي الأخير به زارني في منزلي في الفجر ضابط مباحث مهذب اسمه طوسون ورجاني أن أذهب معه إلى مبنى المباحث العامة في الجيزة لأمر بسيط لن يستغرق أكثر من خمس دقائق، وصدقته وذهبت معه ولم أر بيتي إلا بعد عامين من هذا التاريخ. وأقول لكم الحق كلما مرت بذاكرتي حادثة المطرب الشاب وأنا رهين سجن الواحات، طاف بخاطري أن ما أعانيه في السجن هو تخليص ذنب المطرب الصاعد الذي كان وجهه يختفي وراء عشرات ومئات الدمامل والبثور.

أين ذهب المطرب؟ أين اختفى؟ ألا يزال حيا يرزق؟ هل ضاع في الكازوزة؟ مسكين.. لقد جاء قبل زمانه، ولو أنه جاء هذه الأيام لصار واحدًا من كبار المطربين، لأنني لا أرى فرقًا كبيرًا بينه وبين عشرات من اللامعين المشهورين مطربي هذه الأيام، نسأل الله النجاة منهم ومن شرهم آمين يارب العالمين.

١٥ ـ النجاشي يزيد بن معاوية

إذا كانت مقالب العبد لله قد أصابت بعض زملاء المهنة وتعقبت أنصاف الموهوبين ونالت من بعض الموهومين، فقد كان للأصدقاء والأحباب نصيب من مقالب العبد لله، وأول الضحايا من هؤلاء الأصدقاء كان عم «أبو حسن» وهو من الأصدقاء الذين أعشق صحبتهم بحق. وهو ابن بلد حقيقي عمل فترة من حياته في معسكرات الجيش الإنجليزي في منطقة القناة وسمحت له هذه العلاقة بالسفر إلى فلسطين مرة ومرات بقطار السكة الحديد الذي كان يغادر الإسماعيلية ظهرًا فيصل إلى القدس صباح اليوم التالي، ولكن عم أحمد المنجد لم يقف عند حدود القدس فامتدت رحلاته إلى بيروت وحلب، وبعد قيام دولة إسرائيل انقطعت الطرق فاستقال عم أحمد المنجد الشهير بـ «أبو حسن» من الأورنس وافتتح محلًا لبيع الأقمشة الصوف وبالذات صنف الإمبريال، وهو النوع المفضل لدى العمد والأعيان لصنع العباءات.

بدأت معرفة العبد لله بالمعلم «أبو حسن» في عام ١٩٥٠، وكان الرجل قد بلغ الخامسة والخمسين، ووراء ظهره خبرة طويلة وتجربة

عريضة مع الحياة والناس، وكانت المناسبة أنني اشتريت من محل «أبو حسن» قطعتين من القماش الإنجليزي الممتاز، ثم اكتشفت أن الفلوس التي معي لا تكفي إلا لشراء قطعة واحدة، ولكن العم «أبو حسن» أقسم بجميع الأولياء والصالحين أن القطعتين لي، وأنه لن يتقاضى من ثمنهما مليمًا واحدًا إلا في زيارتي التالية للإسماعيلية، ثم قال وهو يرمقني بنظرة حادة: عيب يا أستاذ دنا من العبابدة!! ولم أهتم وقتها بالسؤال عن العبابدة التي هو منها ولكن هذه المسألة تكررت أكثر من مرة على لسان «أبو حسن» دنا عبادي يا أستاذ، أصل احنا عبابدة يابيه!!

سألت «أبو حسن» في النهاية عن العبابدة، فذكر لي بأنها قبيلة عربية ينتمي إليها «أبو حسن» وهي ليست مجرد قبيلة ولكنها أصل العرب، منها ـ كما روى أبو حسن ـ عنترة بن شداد والشاعر الأعشى وسيدنا أبو بكر ومعاوية بن أبي سفيان والإمام الشافعي وشكري القوتلي ومحافظ بورسعيد. وكان العم «أبو حسن» يحشر اسم القبيلة في حديثه بمناسبة وبدون مناسبة.

تصدقوا بالله.. أنا أعرف البطيخة الحلوة من غير ما أفتحها أو حتى ألمسها فأنا عبادي يا أستاذ.. كان عاوز ينصب عليَّ لكن على مين؟ دنا عبادي يا بيه!!

وهكذا اختمرت الفكرة في رأس العبد لله لابد من تدبير مقلب للمعلم «أبو حسن» يكون درسًا له وللعبابدة التي هي أصل العرب، ليس قحطان كما يزعمون أو عدنان، واتفقت مع الكاتب المسرحي عبد الرحمن شوقي على إعداد المسرح لتدبير المقلب المطلوب،

ولم يكن المسرح إلا شقة وسط الإسماعيلية عند أحد الأصدقاء، وجهاز تسجيل سجلنا عليه بصوت العبد لله حديثًا عن الأنساب العربية للشيخ عبد السلام العجيلي مفتي حلب، وتذيعه إذاعة حلب السورية، واخترنا حلب بالذات لأن أبو حسن كان معجبًا بحلب على نحو خاص..

واللي خلق الخلق.. حلب دي أجدع بلد من غير مؤاخذة، وفيها مخانات تشرح القلب وترد الروح، تخش المخانة من دول تلقى الناس قاعدين لابسين تزالك في رجليها، التزلك من دول يحتاج علبة ورنيش عشان يلمع زي الجنيه الدهب! كان أبو حسن قد زار حلب أكثر من مرة، ولأنه كان حشاشًا من طراز فريد، فقد أسرته مدينة حلب واستولت على قلبه.

يا أستاذ إنت قاعد في المخانة من غير مؤاخذة والجوزة في إيدك تلاقي قدامك صحن مليان مشمشية وتين ناشف من النوع اللي ما بنشوفوش في مصر غير في رمضان.. المهم أننا سجلنا الحديث على جهاز التسجيل، وأخفيناه تحت طاولة تحمل جهاز راديو من النوع العتيق، جهاز راديو تسمع منه كلامًا ودوشة في حجم حركة قطار سكة حديد بالبخار، وجاء أبو حسن وبدأنا السهرة، انهمك أبو حسن في إعداد الجوزة ورص المعسل وكان يبدو في أحسن حالاته وهو في مرحلة الاستعداد للمزاج! المهم كان جهاز الراديو الكهنة يصدر خروشة تصدع الدماغ، عندما طلبت من عبد الرحمن شوقي أن يبحث لنا في الراديو عن محطة جيدة نستمع منها إلى شيء مفيد، نهض عبد الرحمن من مكانه وأغلق الراديو وفتح جهاز

التسجيل، وبدأت الموسيقى العسكرية ثم صوت العبد لله يعلن للمستمعين عن بدء برنامج إذاعة حلب العربية، ثم تقديم البرنامج الذي سيستمع إليه المواطنون على الفور، وهو عن الأنساب العربية، ونبدأ بقبيلة العبابدة!

وبدت الدهشة الممزوجة بالزهو على وجه المعلم أبو حسن، ثم ترك كل شيء وتفرغ لسماع البرنامج ودعانا إلى الانتباه، وبدأ حديث العالم العلامة وأكبر الفهامة فضيلة مولانا الإمام الشيخ عبد السلام العجيلي.. الذي هو العبد لله، يستعرض تاريخ قبيلة العبابدة، التي تضرب أصولها في بطن التاريخ إلى سيف بن ذي يزن والجوش والنجاشي والملك ريتشارد قلب الأسد وقائد معركة داحس والغبراء كنعان بن أبو سريع!

بعد هذه المقدمة الرائعة عن العبابدة والتي أدهشت العم الطيب «أبو حسن» وجعلته يرعش حاجبيه قبل أن يصيح صيحة انتصار وهو ينظر إلينا نظرة لها معنى:

شفت يا أستاذ..

ولأول مرة في التاريخ ينشغل أبو حسن بشيء آخر غير الحشيش.. أزاح الجوزة جانبًا وجلس على ركبتيه وكأنه يؤدي الصلاة، وانتهز فرصة فاصل موسيقي بين المقدمة وصلب الموضوع، وراح يبدي رأيه في المحاضر دا راجل من غير مؤاخذة قفه ولا يفهم أي حاجة، ثم يضرب جبهته براحة يده ويقول: «كانوا جابوني أنا يا أستاذ كنت قولتلهم على سيدنا أبو بكر وسيدنا الخضر» ثم لزم أبو حسن الصمت وجلس هادئًا عندما أفهمناه بأن برنامج الإذاعة لا يزال له بقية،

واستغرق أبو حسن في التفكير والشيخ عبد السلام يستعرض تاريخ العبابدة الذي كان منهم أبو بكر وعثمان ويزيد بن معاوية والحسن البصري وابن قرمط صاحب القرامطة والسلطان شيحة الذي كتب له زكريا الحجاوي برنامجًا إذاعيًا مشهورًا باسم ملاعيب شيحة. ولا يفوتنا أن نذكر لحضراتكم أن زكريا الحجاوي من العبابدة أيضًا، هنا ضرب أبو حسن فخذه بيده ضربة قوية وصاح:

ـ يا قوة الله عشان كده أنا قلبي انفتح للراجل دا أول ما شفته.
وراح الشيخ عبد السلام العجيلي المزعوم يستعرض أسماء الرجال البواسل من قبيلة العبابدة من أول خالد بن الوليد وعبد الرحمن الداخل إلى اللواء مصطفى متولي مدير كلية الشرطة إلى المقدم حسن رشدي ضابط المباحث العامة بالإسماعيلية إلى عم أحمد المنجد الشهير بـ «أبو حسن»!!

هنا ضحك أبو حسن ضحكة طويلة حتى استلقى على ظهره، وتصور العبد لله، أنه كشف الملعوب، ولكنه عندما انتهى من نوبة الضحك التي هاجمته قال مندهشًا:

ياولاد الهرمة.. دا عارفين كل حاجة!! تصدق بالله يا أستاذ مفيش جنس حاجة بتستخبى دلوقت، فيه مغناطيس بيقوللهم على كل حاجة، وبعدين، دا حمار، كان لازم يقول أبو حسن اللي ساكن في التلاتين. ولو كانوا جابوني أنا أقول.. كنت أقول أحسن منه، دا ما قالش عن الحاج سليم العبادي اللي كان عضو مجلس الأمة. وما جبش سيرة محمود بك السيسي اللي كان مدير الحسابات في العريش، وفين عم خليفة معوض الجنايني بتاع هيئة قناة السويس

أيام الجماعة الفرنساوية، واللي كان بياخد ماهية ١٠٠ جنيه في الشهر سنة ٣٩ يا أستاذ!! وراح عم «أبو حسن» يستعرض أفراد القبيلة حتى جاء ذكر والده، فقال:

ـ الوالد الله يرحمه كان شيخ الصيادين في الإسماعيلية، وكان يقعد ع القهوة والصيادين يروحوا البحيرة ويجيبوا الرزق ويبدأ المزاد، ويوم ماولدتني أمي خدتني خالتي وأنا حتة لحمة حمرا ونزلت الشارع وراحت لأبويا على القهوة، باسني وراح واخد نفس حشيش ونفخه في وشي.. أمال كانوا رجالة بصحيح، مش العيال بتوع اليومين دول، يشرب نفسين يدوخ ويطرش!! مفيش عبادي يا بيه يتهز من أي حاجة!!

كنا قد تركنا جهاز التسجيل مفتوحًا عن عمد، وسجلنا حديث «أبو حسن» كاملًا، وهنا كلفت عبد الرحمن شوقي بالبحث عن محطة أخرى لنستمع شيئًا مفيدًا، وأدار عبد الرحمن شوقي جهاز التسجيل وانساب صوت «أبو حسن» يعيد حديثه الذي سمعناه، ولما كان أبو حسن لم يستمع من قبل إلى صوته مسجلًا.. لذلك لم يتعرف عليه وراح ينصت من جديد بشغف إلى الحديث الذي يتناول جميع أفراد قبيلة العبابدة، وكان شريط التسجيل ينقل الينا بين الحين والحين الآخر صوت الجوزة وهي تكركر وتزغرد، وسألنا «أبو حسن» الذي يعرف كل شيء:

بيشربوا حشيش في إذاعة حلب يا عم «أبو حسن»؟

ـ أمال يا أستاذ وأجدع حشيش كمان مفيش حته في حلب ما فيهاش جوزة يا أستاذ، وبعدين دي ناس بتفهم، ومفيش مانع يبسطوا

الناس اللي هتقول في الإذاعة عشان مخهم يروق ومزاجهم يبقى عال العال، مش زي عندنا هنا الناس تبقى قاعدة متكتفة وهي بتقول زي ما يكونوا تلامذة!!

كان الحديث قد وصل إلى نقطة «لما نزلت من بطن أمي من غير مؤاخذة، خالتي نزلت الشارع وأنا حتة لحمة حمرة وراحت لأبويا على القهوة راح نافخ في وشي دخان الحشيش» هنا فقط انتبه العم أبو حسن إلى أن الأمر ليس على ما يرام. بعد لحظة زحف على ركبتيه إلى حيث الطاولة التي تحمل جهاز الراديو، وعندما اكتشف أن الراديو صامت انحنى تحت الطاولة ليكتشف أن الصوت يصدر من جهاز التسجيل.

ولا أدري.. ما الذي دار في عقل «أبو حسن» في تلك اللحظة، كان وحده هو الرجل الكبارة الذي بيننا، وكان العبد لله في السابعة والعشرين، وكان عبد الرحمن شوقي يصغرني بعدة أعوام وأيضًا محمد صبري مبدي الذي صار فيما بعد سكرتيرا عامًا لنقابة المحامين. كنا شلة من العيال في نظره، بينما كان العم «أبو الحسن» يعتبر في نظر الكثيرين من أهالي الإسماعيلية أبو العريف الذي يعرف كل شيء.

جلس «أبو حسن» صامتًا وقتًا طويلًا، بينما لم يستطع أفراد الشلة أن يكتموا نوبة الضحك التي عصفت بهم، كان المقلب حارًا وملتهبًا وثقيلًا للغاية، وانتابني خوف شديد من رد الفعل عند العم «أبو حسن» ماذا يحدث لو شعر بالإهانة وقرر أن يقوم بتربيتنا بطريقته؟! ولو أنه استخدم عصاه أو يده فلن يجرؤ أحد منا على هز قبضة يده في وجهه!!

ومرت لحظات كأنها الدهر كله وفجأة.. أطلق «أبو حسن»

ضحكته الشهيرة، ضحكة طويلة رنانة تنتهي دائمًا بحركة إسكندراني من الأنف.. ثم استلقى على ظهره قبل أن يقول:

ـ الله يا أستاذ حلوة قوي دي.

يا ستر الله، لقد استحسن أبو حسن المقلب وأعجبه، فاتت المسألة على خير والحمد لله.. والعواقب جت سليمة كما يقولون.. وعلى الفور نهض أبو حسن، ارتدى البالطو والعباءة الإمبريال، وكبس طربوشه على رأسه، وأخفى وجهه بالعباءة.. فقد كانت هذه هي عادته كلما خرج من مكان دافئ إلى الشارع، وتأبط العبد لله ذراعه اليسرى، وتأبط عبد الرحمن ذراعه اليمنى، وسحبناه إلى بيته في شارع التلاتين، ولم يكف أثناء الطريق عن الضحك وترديد عبارة «الله يا أستاذ».. حلوة دي! ولكنه انقطع بعد ذلك عن لقائنا أو الجلوس معنا، وتصورت أنه غضب من المقلب، وإن كان لم يشأ أن يظهر ذلك لنا أثناء القعدة، ولكني اكتشفت بعد أن عادت المياه إلى مجاريها أن المقلب لم يغضبه، ولكن الذي أغضبه هو سلوكنا بعد ذلك، فقد نشرنا تفاصيل ما جرى بيننا في الإسماعيلية، وكانت غلطة.. ولكن ماذا تفعل مع شلة عيال جاءتهم الفرصة للسخرية من رجل عجوز يدعي معرفته بكل شيء!

المهم.. كان مقلب «أبو حسن» هو البداية، وقد أعطاني ثقة لا حد لها في قدرتي على ضرب المقالب، وعلى بركة الرحمن سار العبد لله على هذا الطريق خطوات واسعة، ولم ينج من مقالبي عواجيز أو شباب، مسئولون أو صياع، وإن كانت بعض المقالب قد كلفتني كثيرًا.

١٦ ـ علا عالله

كان كبير مشجعي النادي الإسماعيلي رجلًا على باب الله، وكان هذا المنصب الذي وصل إليه عن جدارة واستحقاق هو عمله الوحيد في الحياة ومصدر رزقه. وكان المهندس عثمان أحمد عثمان رئيس النادي يعطف عليه ويمنحه مبلغًا شهريًا، بالإضافة إلى الإكراميات التي كان يجود بها مشجعو النادي من التجار ورجال الأعمال. وكان كبير المشجعين إياه يرتدي بنطلونًا كان لعسكري إنجليزي من قوة جنود الاحتلال في قاعدة القناة، وفانلة مخططة تشبه فانلة فريق الترسانة، وينتعل حذاء كان فيما مضى لأحد صعاليك جوركي الذي فرض نفسه من خلالهم كأديب عالمي ليس له نظير، ويضع فوق رأسه قبعة من الكاوتش، كانت جزءًا من قفة من النوع الذي يستعمله العمال الصعايدة في نقل التراب والرمل، بالإضافة إلى نظارة سوداء بلاستيك يخفي بها عينيه.

وكان يتصدر مدرج مشجعي الدرجة الثالثة قبل بدء المباراة بعدة ساعات.

ويبدأ الهتاف قبل بدء المباراة بساعة، وكانت وظيفته ترديد كلمة

واحدة هي: «علا عالله» فيتبعه المدرج كله هاتفًا: «دراويش». فإذا فاز الفريق بالمباراة ترك كبير المشجعين مكانه بالمدرج وهرع إلى حيث يجلس المهندس عثمان وكبار الضيوف، فيشرح لهم الخطة التي سلمها لرضا وشحتة والعربي والسقا، وهي الخطة التي ضمنت الفوز بالمباراة، ثم يقبض المعلوم قبل أن يخرج من الاستاد على رأس مظاهرة تطوف الإسماعيلية احتفالًا بالنصر.. فإذا انتهت المباراة بالهزيمة ترك كبير المشجعين مكانه في المباراة وهرع حيث يجلس الضيوف ثم يقف أمام مدرج الدرجة الأولى يلعن ويسب لمدرب الفريق الذي امتنع عن الاستماع إلى النصيحة، وأصر على اللعب بالطريقة الجمحشرية التي لعب بها الفريق وانهزم. وكان كبير المشجعين إياه لا يحرم من الحصول على عدة جنيهات من هنا وهناك.

وفي صيف ١٩٦٩ تمكن الإسماعيلي من إلحاق هزيمة ثقيلة بفريق إنجلبير وأصبح بطلًا لأفريقيا، وتقرر بعدها أن يذهب النادي الإسماعيلي في جولة خليجية لجمع بعض الأموال لإزالة آثار العدوان. وذات يوم والعبد لله يحضر تدريبًا للفريق في النادي الإسماعيلي كان يحضره المهندس عثمان أحمد عثمان والدكتور عبد المنعم عمارة الذي كان وقتئذ مسئولًا عن الشباب بمحافظة الإسماعيلية، وجاء كبير المشجعين بعد انتهاء المباراة وطلب من المهندس عثمان أن تضم البعثة المسافرة إلى الخليج مجموعة من المشجعين يكون هو على رأسهم، وقال للمهندس عثمان إن النادي لم يحقق فوزه ببطولة أفريقيا باللاعبين فقط، لكن النصر جاء نتيجة جهود اللعيبة والمشجعين معًا. وعبثًا حاول المهندس عثمان أحمد عثمان التخلص من إلحاح كبير المشجعين، فقد كانت لديه قدرة على

التناحة لا تتوافر لمخلوق سواه. وأخيرًا سأله المهندس عثمان:

ـ إنت عندك بسبور وتأشيرة؟

ورد كبير المشجعين:

ـ لا ما عنديش..

فقال المهندس عثمان وهو ينصرف:

ـ طيب اعملهم وأنا أسفرك.

ورد كبير المشجعين:

ـ وأنا أعملهم إزاي؟ أنا مافهمش في الحاجات دي.

وقال عثمان وهو يشير نحو العبد لله:

ـ خلاص هو البيه ده اللي يعملهملك، هو مسئول الجوازات والتأشيرة.

ولزق كبير المشجعين للعبد لله، وأخيرًا استطعت الإفلات منه والوصول إلى سيارتي وقبل أن أهم بالانطلاق سألني كبير المشجعين طيب أجيلك فين؟

ـ هناك.

ـ هناك فين؟

ـ في المكتب.

وانطلقت بأقصى سرعة في طريقي إلى القاهرة وفوجئت

بعدها بثلاثة أيام بالسيد كبير المشجعين، بحذائه الأنتيكة وبنطلونه العسكري وفانلته الترسانوية، وقبعته التي كانت جزءًا من قفة في سالف الزمان، ينتظرني على باب مؤسسة روز اليوسف، وقال لي موظف الاستعلامات إنه جاء ليفتح باب المؤسسة في الساعة التاسعة صباحًا فوجد كبير المشجعين واقفًا على الرصيف، وقلت للسيد كبير المشجعين، إن القانون ينص على أن كل راغب في السفر لابد أن يكون معه جواز سفر، ولكي يكون معك جواز سفر فلابد من شهادة ميلاد وشهادة من جهة العمل بنوع العمل الذي تؤديه والمرتب الذي تتقاضاه، ونظر كبير المشجعين نحو العبد لله وقال غاضبًا:

ـ وأناح جيب الحاجات دي منين أنا ماليش شغلة غير الإسماعيني، ثم أنا ساقط قيد ما عنديش شهادة ميلاد.

قلت له: بسيطة استخرج شهادة من النادي الاسماعيلي بأنك تعمل به. وتناثر الرذاذ من فمه وهو يصرخ بأعلى صوته: أنا ما بشتغلش في الإسماعيني الديوان، أنا بشتغل في الإسماعيني الكورة!

ـ يعني إيه؟

ـ يعني أنا كبير المشجعين، ودي وهبة من عند ربنا ما حدش إدهالي!

قلت له وأنا أنقر بأصابعي على زجاج المكتب:

ـ خلاص انحلت، هات لي طلب موقع من ١٠٠ مشجع إنك أنت كبير المشجعين، وإن دخلك من هذه الوظيفة لا يقل عن........

وأمسكت عن الكلام عند هذه النقطة وسألته:

إنت بتكسب كام من الشغلة دي؟

تلعثم بعض الوقت ثم قال:

- ما بنكسبش حاجة ٥ جنيه يمكن..

قلت له وقد بدت علامات الأسى على وجهي:

- ٥ جنيه ما تنفعش مش ممكن تأخذ بسبور.

ونطق كبير المشجعين على الفور:

- بنكسب ٥٠٠.

- يبقى كدة انحلت، هات لي ورقة من ١٠٠ مشجع أنك كبير المشجعين وبتكسب ٥٠٠ جنيه في الشهر، وما تنساش تجيب أربع صور وفيش وتشبيه.

ولزم كبير المشجعين الصمت بعض الوقت وقال:

- لزمته إيه الفيش والتشبيه ده؟ أنا ح اشتغل ضابط بوليس..

وقلت له بدون اهتمام:

- مش مهم هات لي ورقة ثانية برضه من المشجعين إنك حسن السير والسلوك، وإنك طول عمرك بتشجع الإسماعيلي، وعمرك ما رحت السجن.

وعض كبير المشجعين على إصبعه بشدة وقال:

- والورقة دي لازم كام واحد يمضوا عليها؟

قلت له:

ـ ٥٠ واحد كفاية على الورقة دي.

واستأذن في الانصراف بعد أن منحته جنيهين، على وعد منه بالعودة في أقرب وقت. وفوجئت به أمامي بعد ثلاثة أيام، ومعه الورقة الأولى موقع عليها ١٠٠ مشجع، والورقة الثانية عليها توقيع ٥٠ شخصًا، وألقيت نظرة على الورقتين، وقلت له على طريقة موظف الأرشيف في مصلحة الضرائب:

ـ الورق ده ما ينفعش..

ـ ما ينفعشي إزاي مش ده الورق اللي انت طالبه؟!

وانجعصت على الكرسي وقلت له مستفيدًا من عمليات التعذيب التي عانيتها في مكاتب الحكومة:

ـ يا سيد إنت جايب لي أسماء وبس، مش يمكن إنت اللي كاتبهم، لازم الإمضاءات ورقم البطاقة وعنوان المنزل.

ظهر عليه الضيق الشديد وهو يقول:

ـ لسه ح أرجع ثاني.

ـ دي مستندات يا سيد ولازم تبقى مضبوطة ترجع ثاني وثالث لحد ما تستوفي الأوراق.

قفز من فوق مقعده وهتف ووجهه نحو السماء:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل.

ونفحته جنيهين فهدأ واستأذن بالانصراف على وعد منه بالعودة في أي وقت، ومرت أربعة أيام قبل أن أجده أمامي ومعه الأوراق المطلوبة عليها التوقيعات وعناوين المنازل وأرقام البطاقات وقلت له وأنا أحاول أن أبدو في صورة عبد المهم:

ـ عال.. الورق كده كويس قوي، فين بقى شهادة الميلاد؟

قال وهو ينفخ من شدة الضجر:

ـ ماقلت لك ما عنديش.

ـ بسيطة، هات لنا ورقة تسنين من أي دكتور.

ـ ينفع دكتور بيطري؟

ـ ينفع قوي، هو ده الدكتور المناسب، لأنه ده بيعرف الحمار عنده كام سنة، من غير الحمار ما يقول أي حاجة.

ونفحته جنيهًا واحدًا هذه المرة فتمهل قليلًا في الانصراف، وتصنعت الغباء وقلت له:

ـ يلَّلا بسرعة لحسن معاد السفر قرب.

وجاء بالفعل بعد عدة أيام ومعه شهادة التسنين من رئيس الوحدة البيطرية بمحافظة الإسماعيلية، وعليها توقيع الطبيب وخاتمه، والشهادة تؤكد أن السيد كبير المشجعين في السادسة والأربعين من العمر، ويتمتع بصحة جيدة، وخال من جميع الأمراض، وتسلمت الأوراق ووضعتها في دوسيه جديد ونصحته بالسفر الآن والعودة بعد أربعة أيام، ولم أمنحه أي شيء في هذه المرة، ولكنه سألني قبل

أن ينصرف عن السر في هذه الأيام الأربعة، فأفهمته بأنه لابد من إرسال الأوراق إلى وزارة الأوقاف أولًا للتحري، فأتى بحركة تدل على احتجاجه الشديد وقال:

ـ هو أنا صايع من غير مؤاخذة؟

ـ يا سيدي دا روتين ولازم نعرف إذا كنت بتأخد إعانة من وزارة الأوقاف من عدمه، لأنه لو ثبت إنك بتأخذ إعانة من وزارة الأوقاف مش ممكن تسافر.

ـ أنا ما بخدش جنس حاجة من الأوقاف، ولا أعرف الأوقاف دي فين.

ـ خلاص يبقى اطمئن.

وسافر كبير المشجعين وعدت إلى الأوراق التي أحضرها وقرأت فيها العجب والعبط. في شهادة حسن السير والسلوك كتبوا الآتي:

(نشهد نحن الشهود على هذه الحقائق أن السيد فلان الفلاني كبير مشجعي النادي الإسماعيني راجل مسايس ومش بتاع لبط، وعمره ما غاب عن تشجيع الإسماعيني لأنه عمره ما راح سجون ولا راح إصلاحيات، إنه راجل دوغري من البيت للنادي ومن النادي للبيت، ويشهد بذلك كل سكان الإسماعيلية كبيرهم وصغيرهم، كما أنه مطيع ولسانه حلو ونفسه حلوة. وأدركت أن هذه الديباجة من إنشائه وهو الذي أملاها على كاتبها. بعد أربعة أيام جاءني كبير المشجعين ولاحظ علائم البشر على وجهي سألني:

ـ خير؟

ـ مبروك يا عم كل شيء تمام.

ـ يعني صاغ سليم.

ـ سليم ونص كمان، حتى قالوا عليك إنك راجل مسايس ولسانك حلو.

-عشان تعرف.

وكتبت له خطابًا إلى مدير عام مصلحة الجوازات والهجرة هذا نصه:

ـ السيد مدير عام الجوازات والهجرة، يؤسفني إبلاغكم بأن النظام الذي تتبعونه حتى هذه اللحظة في استخراج جوازات السفر للمواطنين، هو نظام فاسد من أساسه، لأنكم تعتمدون على شهادات حكومية وأوراق أميرية مع أن الشعب هو مصدر السلطات، ويشرفني أن أكون أول مواطن في الجمهورية العربية المتحدة يستخرج جواز سفر على الأسس الجديدة، وهي الأسس التي لابد أن تلتزموا بها في المرحلة القادمة! ومن هذا المنطلق أحذركم من رفض استخراج جواز سفر باسمي أو من التأخير في إصداره، حيث إنني في طريقي إلى دول الخليج في مهمة رسمية لتشجيع فريق الإسماعيني بطل إفريقيا. واعلموا أن أي تقصير من جانبكم سيلقى القصاص المناسب وسينفذ على الفور، وتقبلوا عظيم التقدير).

ووضعت الخطاب الذي يشبه الإنذار البريطاني لحكومة مصر في عام ١٩٤٢، وأغلقت المظروف وكتبت على المظروف، السيد اللواء مدير عام مصلحة الجوازات والهجرة، وسلمته المظروف وطلبت

منه الذهاب إلى المصلحة في صباح اليوم التالي وبشرط أن يذهب مبكرًا لأن الازدحام شديد، ولأن خزانة المصلحة تغلق أبوابها في الحادية عشرة والنصف صباحًا.

كان سفر بعثة الإسماعيلي للخليج في صباح اليوم التالي لذهابه إلى مصلحة الجوازات والهجرة. وسافرت البعثة والعبد لله معها والأستاذ الراحل نجيب المستكاوي وغبنا في الخليج ثلاثة أسابيع. وعادت البعثة إلى القاهرة وتخلفت عن السفر ومكثت في بيروت عدة أيام لأكتشف بعد عودتي أن كبير المشجعين كان ينتظرني في المطار عند وصول البعثة وهو يخفي في جيبه رقبة زجاجة كان في نيته أن يتفاهم بها مع العبد لله فيما جرى له في مصلحة الجوازات.

وأصل الحكاية أنه ذهب إلى المصلحة في الصباح الباكر فوجد زحامًا شديدًا وطابورًا كبيرًا ولكنه لم ييئس، فوقف في الطابور وعندما أصبح أمام الشباك الذي يختفي وراءه الموظف المختص، كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف، وكان من ورائه صف طويل لا يمكن أن ينتهي من إنجاز معاملاته قبل عدة ساعات، وتقدم بالمظروف إلى الموظف، وعندما فتح الموظف المظروف وألقى نظرة على الأوراق استشاط الموظف غضبًا، فهذا ليس وقتًا للهزار وسأله الموظف:

ـ فين الورق بتاعك؟

فرد عليه باستعلاء:

ـ ما الورق في إيدك أهه!

ـ الورق ده عايز تطلع به البسبور؟!

ـ أمال عايز أطلع به شهادة وفاة.

ـ إنت لازم مخبول.

ـ وأنا عشان فقير لازم تطلعولي في الورق عفريت.

ـ إنت بتشتغل إيه يا واد؟

ـ أنا مشجع النادي الإسماعيني.

ـ إنت شارب حاجة يا جدع إنت؟

ثار الناس المنتظرون في الصف احتجاجًا على تعطيل أعمالهم، في الوقت الذي ترك فيه الموظف مكانه خلف الشباك، وخرج إلى الصالة، وعكم كبير المشجعين من قفاه، ودخل به مكتب أحد الضباط الكبار.. ومعه الأوراق، وما إن اطلع الضابط الكبير على الأوراق، حتى أيقن أن الرجل مجنون، أو مدمن مخدرات، فأمر بإيداعه تخشيبة الجوازات حتى ينتهي الدوام الرسمي، وبعد أن انتهى الدوام سلموه إلى قسم شرطة قصر النيل للتحري، وبعد ثلاثة أيام بقسم الشرطة قاموا بترحيله إلى الإسماعيلية، ولأنه معروف في الإسماعيلية فقد تمكن من مغادرة محبسه بعد يومين، وأقسم أمام جميع المشجعين أنه سيفتح كرشي برقبة زجاجة عند عودتي من الخليج.

وعندما عرفت أنه قادم إليّ في مكتبي استعددت للقائه بالبطل محمد عفيفي، وهو ابن شقيقتي، وهو في الوقت نفسه بطل مصر وأفريقيا في لعبة الجلة وهو اللهم صلي ع النبي يفطر في الصباح

٤٠ بيضة، ويلتهم راس عجل وجوزين كوارع عجالي في الغداء، ويشرب جالون لبن في المساء، وأقة جبنة و٣ كيلو خيار ومثلها طماطم وبطيخة، وكف إيده في حجم فردة كاوتش أتوبيس، وجاءني كبير المشجعين وعلى وجهه غضب الشياطين جميعًا، ولكنها ـ حكمة الله ـ عندما رأى محمد عفيفي أصبح لطيفًا ومهذبًا، وجلس في هدوء يقص عليّ تفاصيل ما حدث له في المصلحة، وطلبت منه وصفًا كاملًا للموظف الذي فعل معه هذه الفعلة النكراء، فوصفه لي بالتفصيل. وهززت رأسي وقلت له:

ـ إنت راجل حظك وحش، الموظف ده أنا أصدرت قرارًا بفصله، واليوم اللي إنت رحت له فيه كان آخر يوم له في الوظيفة، ولما شاف إمضائي حب ينتقم منك!!

ـ رفع كبير المشجعين يديه إلى السماء وهتف: ربنا ينتقم منه!

وقلت له بعد تفكير عميق:

ـ خيرها في غيرها.

وتوسل إليَّ كبير المشجعين أن أذهب معه في المرة القادمة لكي أستخرج له الجواز بسهولة وبدون مشاكل، ووعدته أن أفعل ذلك عندما يحين الوقت. ونهض في أدب شديد وهو يدعو للعبد لله بالصحة وطول العمر.

ولكنه كان طول الوقت يختلس النظر من تحت لتحت لمحمد عفيفي الذي كان جالسًا على المقعد الفوتيل كأنه فيل ساعة القيلولة.

وآمنت وقتئذ بأن الأدب فعلًا فضلوه على العلم!!

١٧ـ نادي الشموح

هل تذكرون الكابتن رفعت الفناجيلي؟ إنه واحد من ألمع لعيبة الكورة في العالم العربي... وكان كابتن النادي الأهلي المصري وكابتن المنتخب أيضًا.. ولأنه دمياطي.. فقد أطلقت مدينة دمياط اسمه على أهم شوارعها. ولعب دوليًا عام ١٩٤٨، واشترك في أوليمبياد لندن، وكان أصغر أفراد الفريق المصري، فلم يكن قد تعدى السابعة عشرة من عمره. وكان الضيظوي هو كابتن الفريق المصري.

ولأن رفعت الفناجيلي كان كأهل دمياط حريصًا وليس بخيلًا، فقد احتفظ بمكافأته وبدل سفره فلم ينفق منهما شيئًا.. وانتهز الضيظوي الفرصة فصرف له النقود الإسترلينية بنقود مصرية، خمسون قرشًا مصريًا مقابل كل جنيه إنجليزي! وبالرغم من أن الفناجيلي يعتبر من أبناء جيلي، إلا أنني لم أره إلا في عام ١٩٦٨ عندما كان النادي الإسماعيلي في جولة بمنطقة الخليج.. ولأن صفوف الإسماعيلي لم تكن مكتملة بسبب الإصابة، فقد استعان المدرب ببعض النجوم من الفرق المصرية، وكان من بين هؤلاء رفعت الفناجيلي من

الأهلي، ومصطفى رياض من الترسانة، والسوبري من الأوليمبي السكندري.

وذات عصرية.. والعبد لله ناصب القعدة في بهو الفندق. الدشداشة صوف إنجليزي فاخر، والعباءة من أغلى أنواع الوبر، وبين أصابعي عصا من الكريز مقبضها من العاج الأفريقي المعتبر. ورأيت الكابتن سيد عبد الرازق يقتحم باب الفندق ويهرول نحوي مسرعًا، واقترب مني ومد يده مصافحًا، ثم انحنى على يدي يقبلها. وعندما سألته عما أصابه قال: إن رفعت الفناجيلي في طريقة الآن إلى الفندق ونريد منك أن تجعل نفسك شيخًا لمدة دقائق فقط، لكي نرى كيف سيتصرف رفعت الفناجيلي أمام هذا الموقف الذي لم يواجهه من قبل.

كنت أعرف أن رفعت الفناجيلي يحب النقود أضعاف حب قيس للست ليلي، وأنه حريص.. الداخل عنده مفقود، والخارج من عنده أندر من الثلج في صحراء العرب، ورسمت نفسي عندما أبصرت رفعت الفناجيلي على باب الفندق. وما إن اقترب مني حتى هوى بين يدي يقبلها كل من سيد عبد الرازق وعلي أبو جريشة.

ونظر رفعت الفناجيلي نحوي فنصحه سيد عبد الرازق بالسلام وتقبيل اليد. وبالفعل.. انحنى الفناجيلي فصافحني وانهال على يدي تقبيلًا، والعبد لله يتمتم: أستغفر الله.. أستغفر الله.. وكلما توقف رفعت عن التقبيل، دفعت بكف يدي نحو فمه لكي يواصل التقبيل. وأفسحت مكانًا لرفعت الفناجيلي بجواري، ورحبت به في (بلاده) ثم سألته:

* إيش تعمل إنت؟

- أنا سنتر هاف.

وتصنعت عدم الفهم، وقلت له:

- هادي شركة ولا مؤسسة؟

ونظر رفعت الفناجيلي نحوي بدهشة، وقال وهو يضغط على الحروف:

- أنا بالعب كورة. وبالعب سنتر هاف.

قلت بدهشة أكبر من دهشته:

- لعب كورة.. يا سبحان الله!!. وأش اسمك.

- أنا رفعت الفناجيلي، إنت ما سمعتش عني؟

- لا.. والله أنا اسمع في صالح سليم، رضا، شحته، حمادة إمام.. سيد بازوكا.. علي أبو جريشة.. ما بعرف غيرهم.

ومال رفعت الفناجيلي على أذني وهمس لي:

- كل دول ولا حاجة، أنا بقى اللعيب الحقيقي. وأنا اللي بجيب الأجوان.

قلت بصوت مرتفع:

- إنت تجيب الأجوان؟

- نعم.. حتى اسأل عني.

ـ طيب ليش.. ما تشتغل عندي؟

ـ وحضرتك بتشتغل إيه؟

ـ أنا شيخ قبائل الشموح.

ـ أيوه أنا عارف، لكن هاشتغل عندك إيه؟

ـ لعيب كورة.

ـ فين؟

ـ في النادي بتاعي؟

ـ وحضرتك عندك نادي؟

ـ كيف ما تعرف.. جاهل إنت؟

ـ عدم المؤاخذة ياجناب الشيخ.

واسترسلت في الحديث عن النادي الذي أملكه.

ـ دا نادي خصوصي عشان الأسرة، واسمه نادي الشموح، القبيلة اسمها الشموح، والنادي اسمه الشموح، وعندنا ستة لعيبة شموح والباقي من بره، واحد من البرازيل.. هادا ياخد مليوني ريال وواحد من المجر هادا ياخذ ٨٠٠ ألف ريال.. وعندنا واحد من أفريقيا بياخد نصف مليون ريال، وعندنا واحد من تونس بياخد المبلغ نفسه. وناقص واحد ح نعطيه نصف مليون ريال وبيت وسيارة، بيني وبينك كنت أفكر في سيد بازوكا. لكن لو أتأكد إنك إنت اللي بتجيب الأجوان، تبقى إنت أفضل!

كان سيد عبد الرازق يقف على مقربة منا، فبادر قائلًا:

ـ يا سعادة الشيخ، أنا بعتّ تلغراف للست والدتي إمبارح عشان أفرحها ومش معقول تتفق مع حد تاني.

وأشرت عليه بالصمت قائلًا:

ـ ما تتكلم كتير، والشغل دا قسمة ونصيب، وأنا وعدتك.. آه، لكن اللي في علم الله هو اللي هيمشي!

ومال رفعت الفناجيلي على أذني مرة أخرى وهمس لي:

ـ دا سيد هنكار.. يعني كلمنجي، وأنا بقول لسعادتك اسأل عني وهتعرف.

طمأنته قائلًا:

ـ طبعًا راح نسأل.. وكل شيء هيتم خلال يومين إن شاء الله.

في هذه اللحظة دخل المهندس عثمان أحمد عثمان من باب الفندق، فأسرع إليه سيد عبد الرازق وهمس في أذنه بشيء. وما إن اقترب عثمان من العبد لله، حتى صافحني منحنيا وخطفت يدي من يده قائلًا.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. ثم قلت:

ـ إنت وينك يا عثمان، سألت عنك مرتين، ثم كيف تيجي هنا وما تفوت عليّ؟

فقال عثمان معتذرًا:

ـ والله أنا مشغول لشوشتي، لكن مع ذلك أنا غلطان وباعتذر يا سعادة الشيخ.

ولم يعد عند رفعت الفناجيلي أي شك في أن الجالس إلى جواره شيخ بحق وحقيق، وصاحب نادي كورة هو نادي الشموح.

ولازمني رفعت الفناجيلي من ركن إلى آخر في بهو الفندق، لمحت في عينيه رغبة شديدة في أن يختلي بي على انفراد، هيأت له الفرصة بأن استأذنت من الجالسين في الذهاب إلى دورة المياه. وفوجئت عند خروجي من الحمام بالكابتن رفعت الفناجيلي، وما إن رآني حتى أبدى رغبته في الانفراد بي بعض الوقت، وأخذت ركنا منعزلًا في بهو الفندق، وجلست أستمع إلى رفعت الفناجيلي وهو يستعرض تاريخ حياته في الملاعب.. قال رفعت:

ـ شوف يا سعادة الشيخ، أنا.. اسأل عني أي واحد، حتى اسأل عني هنا في الخليج، أنا أحسن لاعب في مصر كلها، كل اللي شايفهم إنت هنا دول.. ولا حاجة. وبعدين أنا في الهجوم أهاجم، في الدفاع أدافع، وبالعب في خط الوسط، ومع ذلك أنا هداف الدوري عاوز أقولك إنك مش هتخسر حاجة لو اتنقلت عندك في نادي الشلوح.. صححت له الاسم قائلًا.. الشموح.

ورد رفعت قائلًا..

ـ لا تؤاخذني، أنا أصلي أول مرة، أسمع عن النادي بتاع سعادتك، وإن كنت أعرف أنه ناد كبير وحقق نتائج كبيرة!

وقاطعت رفعت قائلًا:

ـ إذا كنت تتعهد بأنك تجيب جون في كل مباراة باكتب معاك العقد فورًا ورد رفعت متحمسًا:

ـ وبتقاطع على رزقك ليه؟ يمكن أجيب أكثر.

ـ أنا ما يهمني أكثر، أنا يهمني تنفذ الاتفاق، جون في كل مباراة إيه رأيك؟

ـ مفيش مانع.. بس افرض سعادتك، إن أنا جبت الجون والحكم لغاه.

ـ إنت ما عليك. إحنا بنرشي الحكم قبل المباراة، إنت تحط الكورة في الجول ومالك علاقة بالنتيجة.

قال رفعت مرتاحًا:

ـ إذا كان الأمر كده يبقى حط في بطنك بطيخة صيفي.. إن شاء الله هاحط في كل مباراة جونين وثلاثة..

اعتدلت في جلستي وقلت:

ـ اتفقنا.. العقد جاهز بكره تفوت علينا في المساء، الدفعة الأولى ربع مليون ريال، المرتب خمسون ألف ريال كل شهر وبيت وسيارة.

ـ وعفش البيت؟

ـ إحنا بنأثث، بس يكون في معلوماتك إحنا بنأثث الضروري.

ـ والمطبخ؟ جاهز من كله!

ـ ما يخالف..

ـ كويس.. بس أنا عاوز ثلاجة إيديال كبيرة.

ـ أيش إيديال هادا. عندك جنرال إليكتريك.

ـ حلوة زي إيديال يعني؟

ـ إيش فيك أنت؟

ـ ما تزعلش مني، أصل أنا عايز أرتاح عشان أتفرغ للكورة، وخذ مني أجوان زي ما أنت عاوز

ـ هادا هو المطلوب، وبعدين... كل جون تجيبه عشرة آلاف ريال. الفوز عليه عشرة آلاف والتعادل خمسة آلاف بس.. مفهوم؟

ـ طبعًا يا سعادة الشيخ.. إنت هيكون عندك الكاس السنة دي.

ـ هادا هو المطلوب.. ولو خدنا الكاس فيه ربع مليون مكافأة.

ـ يا خبر.. إحنا هناخد الكاس والدوري بإذن الله.

ـ بس فيه شرط يا فنجال.

ـ الفناجيلي يا سعادة الشيخ.

ـ الاسم ما يهم، فنجال.. فناجيل.. ما في فرق! أجولك فيه شرط.. إن خدنا الدوري..

ـ أنا تحت أمرك..

ـ إذا خدنا الدوري، لازم تتجوز عمتي!

بدت الدهشة على وجه رفعت الفناجيلي، وقال وهو يتلعثم:

ـ بس أنا أصلي.. قاطعته بغضب شديد:

ـ إيش تقول؟ تعتذر عن الزواج من عمتي؟! فاهم إنها عجوز، هادي

ما تجاوزت الستين بأي حال من الأحوال ثم هادي عندها أملاك، عندها فلوس، عندها طيارة خاصة عندها قصور في كل مكان.

ـ أنا ما قلتش حاجة يا سعادة الشيخ، إنما أنا بس كنت عاوز أقول... يعني..

ـ إيش تقول.. إنت ما تستحق النعمة، أنا ما سمعت فيك ولا أنت لعيب كورة.

وراح رفعت الفناجيلي يعتذر لسعادة الشيخ، مبديا استعداده لتنفيذ أوامر سعادة الشيخ، ولكن.. قال رفعت:

ـ أنا بس متجوز يا سعادة الشيخ.

وصرخت في وجه رفعت الفناجيلي:

ـ مسلم إنت والا إيش؟

ـ مسلم والحمد لله.

ـ طيب إيش فيك، ليك أربعة حسب الشرع..

ـ ما قولناش حاجة، بس يعني إيه؟ المسألة عاوزة ترتيب يعني.. مش أكثر من كده.

ـ ما يخالف، بكرة تكتب العقد، وكل شيء بإذن الله.

وتركت رفعت الفناجيلي وغادرت الفندق مع المهندس عثمان والأستاذ المستكاوي. وراح عثمان يستمع لتفاصيل ما دار بيني وبين رفعت. وفي النهاية قال عثمان:

ـ اللي أنت عملته ده حرام يا محمود، الجدع مش هينام لحد الصبح. وبكره فيه ماتش، ومش هيعرف يلعب بنكله.

واقترح عثمان عند عودتنا إلى الفندق أن نصعد إلى غرفة رفعت ونصارحة بالحقيقة، لكي ينصرف عن التفكير في هذا الأمر، ولكي يستغرق في النوم استعدادًا لماتش الغد. وبالفعل صعدنا إلى غرفة رفعت الفناجيلي، وأخذته المفاجأة عندما رأى عثمان أحمد عثمان داخل غرفته، ومع من؟ مع سعادة الشيخ! وقال رفعت بلهجته الدمياطية مرحبًا:

ـ إيه النور دا كله، عثمان بك وسعادة الشيخ. وقال عثمان:

ـ يا رفعت دا محمود السعدني الصحفي المصري، لا شيخ ولا حاجة، دا راجل على قد حاله وزينا. وعاوزك تنسى الكلام اللي قالهولك. وتروق مخك عشان الماتش بتاع بكره.

ورد رفعت وعلى شفته ابتسامة بلا معنى:

ـ الماتش بتاعنا بكره يا عثمان بك.

ـ هُوَّ دا المطلوب يا رفعت.

وعندما تأهبنا للانصراف قال عثمان لرفعت:

ـ أنا عاوزك تنام كويس.

وعندما مد رفعت يده لمصافحتي، قال له عثمان:

ـ سلم على عمك محمود السعدني.

وقال رفعت وهو يصافحني:

ـ مع السلامة يا سعادة الشيخ..

وقلت للمهندس عثمان:

ـ دا لسه فاهم إني شيخ.

ـ لأ ما أظنش.. دا أنصح منك.

في اليوم التالي كِنا نجلس في المدرجات نشاهد المباراة بين الإسماعيلي والنادي الخليجي. وفجأة دبت خناقة حامية بين اللاعبين.. وهرولت أنا والمستكاوي داخل الملعب لتهدئة لاعبي الإسماعيلي. كنت أرتدي البدلة كاملة. والكرافتة تتدلى على صدري، واقتربت من رفعت الفناجيلي الذي كان مشتبكًا في ماتش مصارعة مع أحد لاعبي الخليج وصرخت فيه بكل قوة:

ـ حتى إنت يا رفعت، بقى أنا بقول عليك عاقل وراجل كبير وفاهم، ألاقيك نازل ضرب إنت راخر. مش عيب عليك يا رفعت ونظر نحوي طويلًا، وبان الخجل على وجهه.

ـ صدقني يا سعادة الشيخ أنا ما عملتش أي حاجة، هو اللي ضربني، أي والله كده يا جناب الشيخ.. وقلت للفناجيلي.. لأ ده إنت باين عليك اتجننت فعلًا يا رفعت.

فنظر إليَّ مستعطفًا.. والله يا حضرة الشيخ أنا عقلت ومستعد أنفذ شروط العقد وخصوصًا بند الست عمتك.. بس إوعى تزعل مني يا سعادة الشيخ ربنا يخليك.

وهنا قررت أن أنسحب من الملعب بعد أن وصل صوته إلى أسماع الجمهور في المدرجات. لكن الفناجيلي تبعني كظلي وأنا أهدئ من روعه.. يا بني أنا محمود السعدني الصحفي المصري كنت راكب معاكم الطيارة من القاهرة.. ولكن الفناجيلي رأسه وألف سيف أنني شيخ قبائل الشلوح وأنني زعلان من فعلته في الملاعب وعلى هذا الأساس ادعيت أنني الصحفي المصري محمود السعدني.. ومرت سنوات طويلة على هذا المقلب قبل أن يعرف الفناجيلي حقيقة الأمور!!

١٨ ـ ديوان الشمس الطالعة

في أيام (الحكم الشمولي) كان العبد لله مسئولًا عن الجيزة.. وكنت أتخذ من محل الحلاق أحمد عبد العال بشارع الفاتح محلًا وعنوانًا مختارًا، لم نكن مثل المسئولين في أيام الانفتاح والانفشاخ نجلس في شيراتون أو في نادي الجزيرة، وأمام دكان أحمد عبد العال جلس عشرات من المسئولين الكبار، مصريين وعربا، مسئولين كبارًا في الاتحاد الاشتراكي وفي الحكومة وفي الوزارة، محافظين ورؤساء مدن ورجال سياسة، وكل أعضاء مجلس الثورة السوداني ـ ما عدا النميري ـ جلسوا أمام دكان أحمد عبد العال الحلاق، كلهم ومن أول خالد عباس وزير الحربية ونائب الرئيس وإلى بابكر النور قائد الانقلاب ضد النميري، وأحد الذين أعدمهم النميري بعد عودته إلى السلطة، ورؤساء أحزاب من سوريا وزعماء معارضة من العراق، وأدباء كبار من كل أنحاء العالم العربي.

وكان من عادة حسين الألفي مستشار المجلس الأعلى للشباب والرياضة حاليًا الحضور أحيانًا إلى دكان أحمد الحلاق، فقد كان وقتها رئيسا لمدينة الجيزة ومسئولًا في التنظيم الطليعي.

وذات مساء فوجئت ونحن جلوس أمام الدكان بالشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل يحضر إلينا، ولم يكن من عادته أن يفعل ذلك، فهو شاعر هائم في دنياه، وهو يتكلم غالبًا مع نفسه ونادرًا مع الناس، جاء عمنا الشاعر الكبير على غير عادته وجلس وراح يتجاذب أطراف الحديث مع الحاج إبراهيم نافع والأسطى أحمد الحلاق، وتصورت أن محمود حسن إسماعيل في سبيله لوضع قصيدة عن قوى الشعب العامل لإلقائها في عيد العمال، ولكن محمود حسن إسماعيل ألقى فجأة نظرة على ساعته وسأل العبد لله:

ـ مش السيد حسين بييجي هنا؟

ـ حسين مين؟

ـ السيد حسين الألفي.

ـ أيوه.. بس مش كل يوم.

وسرح عمنا محمود حسن إسماعيل في بحور شعره ثم عاد إلى جلستنا مرة أخرى.. وسأل العبد لله:

ـ مش صاحبك هوَّ؟

هززت رأسي موافقًا فقال:

ـ أصل أنا ليه عنده مصلحة بسيطة.

ـ قوي.. تحت أمرك.. خير..

ـ أنا أصلي فكرت في الآخر أعمل بيت للعيال بس الأخ حسين مدوخني.

ـ ليه؟

ـ ما هو الأسمنت من مجلس المدينة، والحديد من مجلس المدينة وكل حاجة في مجلس المدينة.

ـ طيب ما تروح لحسين.. دا راجل ظريف وطيب خالص.

وعلق الشاعر الكبير شفتيه، ثم مصمص بشدة، ثم غمغم ثم نفخ ثم قال:

ـ ما أنا رحت له المكتب من كام يوم بس عاملني معاملة يعني.. مش عاوز أقول سيئة، لكن ممكن وصفها بالباردة.

وقاطعه الحاج إبراهيم نافع قائلًا:

ـ يمكن ما يعرفش إنك أنت الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل؟!

وقال الشاعر.

ـ أنا قدمت له البطاقة التي تحمل اسمي، وتعمدت أن أذكر له أكثر من مرة أثناء حديثي معه أنني الشاعر محمود حسن إسماعيل، لكن يظهر أنه كان ضابط جيش ثم أصبح موظف حكومة ويبدو أن علاقته بالشعر مثل علاقة حضرتنا بالمصارعة!

ولزمت الصمت لحظة ثم قلت للشاعر:

ـ بالتأكيد هو عارف إنت مين ووزنك إيه بالضبط؟

ـ أنا برضه أعتقد كده.

وحدقت طويلًا في وجهه وقلت له:

ـ بس إنت اللي غلطان مش هوَّ.

وقال محمود حسن إسماعيل منزعجًا..

ـ أنا.. ليه؟!

ورسمت علامات الجد على وجهي وقلت له:

ـ هل حدثت حسين الألفي عن ديوانه الجديد.

وبدت الدهشة الشديدة على وجه الشاعر، وقال:

ـ حسين الألفي له ديوان شعر جديد؟!

ـ طبعًا..

ـ معنى ذلك أن له ديوان شعر قديمًا؟

ـ دواوين شعر من فضلك.

ـ معنى ذلك أنه شاعر.

ـ والمشكلة أنك لا تعرف ذلك.. وشاعر مثل حسين الألفي ومهما كانت طبقته بين الشعراء، كان يهمه جدًا وقد وجد شاعرا مثلك أمامه أن يسمع ولو كلمة مجاملة واحدة في شعره، ولكن تجاهلك له وإهمالك لابد أنه جعله يرد لك الصاع صاعين، فلا أسمنت ولا حديد تسليح ولا بيت ولا هم يحزنون!

وسرح محمود حسن إسماعيل بعيدًا، وقال في قلق ظاهر:

ـ وديوانه الأخير اسمه إيه؟

كان السؤال مفاجئًا. وضربت لخمة مع العبد لله، فقلت له: إيه.. إيه.. الشمس طالعة.

قال باشمئناط شديد:

ـ ودا عنوان ديوان شعر؟!

وأجبته بسخرية:

ـ ما هو شاعر على قده كده، يعني زي ما تقول كده في سلاح الشعر، لكن مهما كان، إنت اللي غلطان، إنت رايح له ومحتاج له وهو شاعر ويمكن واخد في نفسه قلم وفاهم إنه أمير الشعراء أحمد شوقي فلما تقابله وتقعد ساكت يبقى مش واخد أسمنت ولا حديد.

ـ والعمل..؟

ـ بسيطة..

ـ إنت تروح له بكره وأنا هاتصل به، هاتقوله إنك معجب بالشعر بتاعه، وإنك كنت مكسوف تتكلم معاه أحسن يفتكرك إنك بتنافقه.

ـ طيب والديوان فين علشان أقراه.

ـ هاحاول أجيبهولك بس إنت تروح له واطلب نسخة ويكتب لك إهداء كمان، وعلى العموم تتكلم معاه بشكل عام عن جزالة اللفظ وعمق المعنى وذكاء التناول وحاجات زي كده.

وانبسط عمنا محمود حسن إسماعيل وانصرف على وعد منه بأن يتصرف كما رسمت له.

وفي اليوم التالي اتصلت بالأخ حسين الألفي رئيس مجلس مدينة الجيزة وعاتبته لعدم اهتمامه برجل في حجم الشاعر محمود حسن إسماعيل أمير شعراء زمانه.

وسكت حسين الألفي فترة ثم صاح في التليفون:

ـ يا خبر.. هو دا الشاعر؟

فلما أجبته بالإيجاب قال:

ـ إنت عارف أنا مشغول لشوشتي، وطول النهار قاعد في المكتب وسط المشاكل، وهوه بالفعل جاني وقعد معايا، بس لمعلوماتك هو عاوز ياخد حديد وأسمنت أكثر من حقه، وقلت للأخ حسين الألفي:

ـ يعني هيه وقفت عند محمود حسن إسماعيل، ثم دا راجل شاعر وفنان، ودا صوت مصر، وهايعمل بيت يسكنه مش يتاجر فيه، يبقى لازم نكرمه يا عم حسين.

وقال حسين الألفي:

ـ خلاص، راجل زي ده لازم نكرمه فعلًا، خليه يفوت عليّ، وحكيت لحسين الألفي تفاصيل ما دار بيني وبين الشاعر الكبير، وقلت له سيكلمك عن شعرك وديوانك الأخير ودواوينك القديمة، وأرجو أن تظهر له سرورك الشديد بتقديره لشعرك.

وقال الأخ حسين:

ـ يا رجل.. أحسن يفتكر إن الأمور ماشية عندي بالشكل ده واللي يعجبه شعري أديله اللي هوه عاوزه.

ـ وهو إنت شاعر؟!

ـ أنا شاعر بتعب.

ـ على العموم هنبقى نقعد معاه ونفهمه الحكاية، عشان يعرف إن الشاعر مش لازم يعيش مقفول في دنياه بس، وإنما لازم يبقى صاحي ويعيش مع الناس كمان.

وفي اليوم الموعود ذهب الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل لمقابلة الشاعر حسين الألفي ودار بين الشاعرين أغرب حوار في تاريخ الشعر العربي، ولم أعرف تفاصيل هذا الحوار إلا في اليوم الثاني، أو بمعنى أصح في مساء اليوم التالي، عندما حضر إلى دكان أحمد الحلاق حسين الألفي ومعه الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل. وكانت جلسة حافلة بعتاب شديد اللهجة من الشاعر، وضحك متواصل من جانب حسين الألفي.

وأصل الحكاية أن محمود حسن إسماعيل عندما دخل مكتب حسين الألفي راح يعتذر له عن تقصيره في دراسة شعره، وقال إن من سلبيات الحركة الأدبية هو عدم اهتمام الكبار بأدب الجيل الصاعد (حسين الألفي كان بدرجة وكيل وزارة في ذلك الوقت) ولكنه تعلل بكثرة انشغال الأدباء الكبار، وعدم وجود الوقت اللازم للاطلاع على إبداع الجيل الجديد، وضرب محمود حسن إسماعيل مثالاً على ذلك بنفسه، فهو إلى جانب اهتماماته بالشعر يعمل موظفا بالإذاعة، وهو رئيس لجنة الاستماع بها، وعضو بالمجلس الأعلى للفنون ومقرر لجنة الشعر به. وعضو مجلس إدارة نادي الأدباء ومسئول عن مهرجان شعراء الأقاليم بالثقافة الجماهيرية ولكنه وعد حسين

بالرغم من مسئولياته ومشغولياته بدراسة شعره وتحليله، وطلب من حسين نسخًا من دواوينه، ونسخة من ديوانه الأخير وعليها إهداء حسين وتوقيعه!

وبعد أن انتهى محمود حسن إسماعيل من محاضرته الطويلة مد حسين الألفي يده إلى محمود حسن إسماعيل وبها موافقة على كميات الحديد والأسمنت المطلوبة، وقال له حسين الألفي:

أستاذنا الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل: في الحقيقة أنا مجرد ضابط جيش وكنت ضمن الضباط الأحرار، واشتغلت فترة سكرتيرًا عامًا لمحافظة السويس، ثم جئت رئيسا لمدينة الجيزة، وأنا لشدة انشغالي لم أدرك أن الرجل الذي جاء إلى مكتبي هو محمود حسن إسماعيل الشاعر الذي ملأ حياتنا شعرًا وغناء، ولذلك أرجو أن تعذرني، ثم إنني بيني وبين الشعر مثل الذي بين الأرض والقمر، فلا أنا شاعر ولا أنا أديب، ولكنه مقلب من مقالب السعدني ولذلك لابد أن نذهب إليه معًا، حتى يتعلم أن المقالب لا تنجح دائمًا، وهكذا كان لقاؤنا نحن الثلاثة أمام دكان أحمد الحلاق في شارع الفاتح بالجيزة، وصار محمود حسن إسماعيل منذ تلك اللحظة من رواد قعدتنا، وظل مواظبًا عليها حتى خروجه على المعاش. لكن لم ينقطع محمود حسن إسماعيل عن المجيء إلى دكان أحمد الحلاق إلا بسبب سفره إلى إحدى الدول العربية، وبعده بسنوات قليلة ذهبت أنا الآخر إلى هناك هربًا من مطاردة الرئيس المؤمن.

ولأن المثل الشعبي يقول للغريب كون أديب فقد قررت بيني وبين نفسي أن أجمد هواية ضرب المقالب حتى تحين العودة إلى

أرض الوطن. ولكن ذات مساء وجدت ضحية تسعى إلى العبد لله بإرادتها. في أول الأمر حاولت بشدة أن أمنع نفسي ولكن النفس الأمارة بالمقالب انتصرت في نهاية المطاف فكان المقلب الذي أحدث صدى رهيبًا في عاصمة هذه الدولة العربية.

١٩ ـ أم المقالب

وعلى وزن أم المعارك.. كان هذا هو أم المقالب بلا جدال!

مسرح الأحداث كان في عاصمة عربية لا داعي لتحديد مكانها الآن. والضحية رجل من وجوهها لم يكن به نقص إلا رواياته المزعومة عن علاقاته بالوسط الفني في القاهرة، وبالفنانات على وجه الخصوص. ما اجتمعت به في أي وقت إلا راح يحدثني عن علاقاته المتعددة بالنجمة الفلانية، ومعاركه مع النجم المشهور إياه من أجل الممثلة الفاتنة إياها! كان العبد لله مهاجرًا في تلك الأيام رغم أنفه، ولأن الزن في الودان يعمل عمل السحر..

فقد تصورت أن الأحوال في الوسط الفني قد تدحرجت إلى هذا المستوى. والسبب أن الفكرة التي كونتها عن الشخص إياه كانت في غير صالحه. صحيح أنه كان وسيمًا وثريًا ولكن لا شيء بعد ذلك. إذا فتح فمه بالكلام انحنيت لتخلع فردة حذائك. إذا تعرض أحد الموجودين لموضوع جاد... أشاح بوجهه ولزم الصمت. مثل هذا الشخص يستطيع أن يقيم علاقات عابرة، أما أن يقيم علاقات دائمة ويدخل في سبيلها معارك مع الآخرين.. فاسمح لي!

المهم أنني لم أتوقف كثيرًا عند هذه الحالة المرضية التي يعاني منها صاحبنا إياه، واعتبرتها حالة لا بأس بها، ولها فضل في قتل أوقات الفراغ!

ولكن المقلب جاء مصادفة وبدون ترتيب.. كان الصحفي علي كامل في زيارتي عندما دق جرس التليفون في مكتبي وكان المتحدث هو صاحبنا نفسه. سألني أن أزوره في منزله ولكني اعتذرت، فسأل عن السبب فأجبته بأن رشدي أباظة هو ضيفي هذه الليلة. صرخ باهتمام شديد:

ـ احلف..

قلت بدون مبالاة:

ـ واحلف ليه إذا كان رشدي قاعد قدامي.

ـ طيب.. إذا كان رشدي عندك، أرجوك تيجي وتجيبه معاك.

ـ أسال رشدي الأول.. وبعدين أجاوبك.

ـ أرجوك يا محمود، والله إنت ما تعرف منزلتك عندي هتكون أد إيه!

لزمت الصمت لحظات وكأنني أسأل رشدي أباظة، ثم قلت لصاحبنا الملهوف على استضافة رشدي:

ـ مفيش مانع.. بس بشرط.

ـ أنا مستعد وحاضر.

قلت له وكأنني الجنرال أيزنهاور يملي شروطه على القادة الألمان:

ـ أولًا: رشدي أكول وإنت من أنصار نظرية الطعام مكروه للضيوف.

ـ ثانيا: رشدي يشرب كثيرًا، وأنت لا تسمح بأي شراب للضيوف إلا في حدود القهوة والشاي!

راح صاحبنا يصيح على التليفون وكأنه مجنون:

ـ اسمع يا محمود، خروف مشوي من أعظم فنادق العاصمة.. ما رأيك؟

ـ عظيم..

ـ وزجاجتان من أشهر الأصناف..

ـ ماذا تقول؟ لا تكفي يا صديقي، لأن النجم الشهير رشدي الذي يزور عاصمتك لأول مرة، ويختصك أنت بالذات للسهر في بيتك، لا أقل من صندوق كامل يأخذه معه بعد انتهاء السهرة.

أجاب مستسلمًا:

ـ مفيش مانع.. صندوق كامل:

لم يساورني أي شك وأنا في طريقي إلى منزل صديقنا في أنه سيكتشف الملعوب بعد دقائق قليلة. صحيح أن الأستاذ علي كامل كان قريب الشبه من رشدي أباظة، ولكن علي كامل كان أنحف وأقصر. ويستطيع أي إنسان شاهد رشدي أباظة أكثر من مرة في

السينما أن يتبين الفرق. وقلت لنفسي، على العموم سيكون اكتشافه لشخصية علي هو مادة السهرة. ولكن الذي حدث بالفعل.. كان أغرب من الخيال.

استقبلنا صاحبنا عند الباب ورحب بالأستاذ رشدي كثيرًا، ثم تقدمنا إلى الداخل. وبعد أن جلس رشدي في صدر المكان، أسرع صاحبنا إلى فتح التليفزيون، ثم فتح النافذة، ثم فتح الباب، ثم فتح جهاز الاستريو، ثم جلس وفتح التليفون، وراح يتصل بالأصدقاء. ودار الحديث بينه وبين الأصدقاء على هذا النحو:

ـ ما تصدق عندي مين! رشدي أباظة، إي والله والأستاذ رشدي قاعد قدامي!

ثم يغلق التليفون ويعاود الاتصال:

ـ ما تصدقين عندي مين! أستاذ رشدي أباظة، تعالي بنفسك سلمي عليه، أقول.. تعالي بنفسك.. الكاميرا؟ ما في مانع ثم يغلق السماعة ويعاود الاتصال.

ـ أقول رشدي أباظة.. تعال اسهر معانا.. أضحك عليك أنا؟ إنت حر.. بكرة تندم.

انتابني الخوف أن يحضر بعض هؤلاء المعارف فيكتشفوا الملعوب، وتنتهي سهرتنا إلى مأساة. أمسكت بسماعة التليفون ونهرته قائلًا:

ـ الأستاذ رشدي يحب الهدوء.. ما يحب الزحمة!

لزم صاحبنا الصمت ثم سرح بعيدًا عن المكان والزمان. حاولت أن

أنعش ذاكرته للوفاء بوعوده التي التزم بها، فاستجاب على الفور، اتصل هاتفيًا بفندق شهير طالبًا.. «خروف مشوي» وسلطات من كل الأنواع وحلوى فاخرة، ثم قال للآخر الذي كان يتحدث معه وبدون مناسبة:

ـ بس خد بالك، لأن اللي هياكل الخروف أستاذ رشدي!!

بعد ذلك لزم الصمت فلم ينطق بحرف. تصورت أنه سيناقش (أستاذ رشدي) في فيلمه الأخير، تصورت أنه سيستعرض معلوماته الفنية أمام الأستاذ، تصورت أنه سيسأله عن أحوال فلانة التي عشقها، وفلانة التي دخل معارك من أجلها، وتصورت أنه سيذكر الأستاذ بجلسة معه في بيت فلانة أو علانة!! ووضعت يدي على قلبي خوفًا من أن يتعرض في حديثه لفيلم من أفلام رشدي يكون علي كامل نفسه لم يشاهده! ولكن الله ستر، فلم يفتح صاحبنا فمه بأي كلام. ومر الوقت بطيئًا قاتلًا بينما القلق ينهش قلبي خوفًا من دخول ضيف يكون على علاقة بالأستاذ رشدي الحقيقي، أو على علاقة بالدوبلير. الأستاذ علي كامل.. وحدث ما كنت أخشاه. وصل ضيف عجوز ونظره على قده.. كما يقولون. ثم اكتشفت أن القادم خادم قديم لدى العائلة.

ومد الخادم العجوز يده يصافح الضيوف، وما إن وقع بصره على الأستاذ علي كامل حتى صاح صارخًا:

ـ هاي.. هاه.. هوه دا.. هاي.. هاه.. هادا هاوه.

ابتسم صاحب الدار ابتسامة عريضة، ثم راح يشجع خادمه على اكتشاف الحقيقة قائلًا:

ـ مين هادا؟!

قفز الخادم العجوز قفزة هائلة ودار حول نفسه دورة كاملة ثم قال وكأنه اكتشف سرا حربيًا:

ـ هادا..هادا.. هادا فريد شوقي!!

أجبت الخادم ضاحكًا:

ـ يا سلام على العبقرية.. مضبوط فريد شوقي!

صاح صاحبنا في وجه خادمه مؤنبا:

ـ يا حمار.. ما تفهم إنت.. هذا أستاذ رشدي أباظة.

ألقى الخادم العجوز نظرة أخرى على الأستاذ علي كامل ثم قال:

ـ آه.. فريد شوقي.

نهر صاحبنا خادمه بشدة، ثم التفت للأستاذ علي كامل وقال:

ـ عفوا أستاذ.. هادا حمار ما يفهم.

لم يرد علي كامل على صاحب الدار، واكتفى برسم ابتسامة عريضة على شفتيه!

وفجأة وقع ماكنت أخشاه. جاء صديق لصاحب الدار ليسلم على الأستاذ (رشتي) أباظة.. ودخل وصافح رشتي واحتضنه بشوق شديد ثم حاول أن يلتقط له صورة بكاميرا كانت معه ولكن الكاميرا لم تكن تعمل بسبب ضعف أصاب البطاريات، فاستأذن وتركنا مسرعًا

ليحضر بطاريات جديدة. ودعوت الله ألا يعود، واستجاب الله لدعائي فلم يحضر. وحضر الأكل وجاء به شاب مصري لم يتجاوز الثلاثين. ووضع الطعام على المائدة وتناول الحساب من صاحب الدار ثم نظر نحونا بدون اهتمام. ونهره صاحب الدار قائلًا:

ـ مالك.. عميت إنت، ما تشوف مين قدامك؟

أرعش الشاب حاجبيه ونظر نحونا في اضطراب ثم قال:

لا مؤاخذة، إنتو أحسن ناس، ربنا يزيدكم من نعيم الله!

واعتذر صاحب الدار عن غباء العامل المصري وقال:

ـ هادول مساكين والله، ما يشوفوا أفلام ولا تليفزيون، هادول يشتغلوا عشان الفلوس وبس!!

أكلنا بفضل الله وشربنا، وانفضت السهرة على خير، وعند انصرافنا قلت لصاحب الدار:

ـ فين الصندوق اللي إنت وعدت به؟

تردد قليلًا، ولكن صرخة خرجت من فمي جعلته يسرع بإحضار الصندوق. وضعت الصندوق في السيارة وعدت إلى صاحبنا.. وهمست له:

ـ وأنا؟!

ـ إنت إيه؟!

ـ أنا اللي جبتلك رشدي؟!

ـ عاوز إيه؟

ـ «زجاجتين»...

ـ زجاجة واحدة بس.

ـ كده.. طيب إن جبتلك حد تاني!!

ـ طيب طيب.. بس اوعدني أي فنان يحضر من مصر تجيبه!

ـ حاضر إن شاء الله.

وأسرع صاحبنا إلى داخل الدار، ثم عاد ومعه «زجاجتان».

في اليوم التالي كانت العاصمة إياها قد سمعت بقصة الأستاذ (رشتي) الذي قضى الليلة في بيت الأخ إياه. وتوالت المكالمات التليفونية على منزل صاحبنا.

ـ كيف تصدق؟

ـ معقول يا أخي رشدي أباظة هنا والجرائد ما تكتب، والتليفزيون ما يقول شيء؟!

ـ ثم هادا الشخص اللي جاء عندك أقصر وأنحف!!

واختفى صاحبنا شهرًا لا يكلم أحدًا. وانقطعت عن زيارته. بطبيعة الحال.

ومرت سنوات طويلة قبل أن أتلقى منه مكالمة تليفونية وأنا مقيم في بغداد. وبعد السلام والكلام طلب مني أن أتصل بصديقه المحامي وأبلغه بنبأ وصوله يوم السبت القادم، وأوصيه بضرورة

حجز جناح له بفندق بغداد، وإعداد السهرة المعتادة له بلوازمها من مشروب وبنات، وأعطاني رقم تليفون المحامي صديقه ووعدته خيرًا وعلى بركة الله.

ولم أتصل بأحد، ولكني طويت الورقة التي تحمل رقم التليفون وكان الله يحب المحسنين.

بعد أيام كنت في زيارة صديق مسئول بوزارة الإعلام، أخرجت الورقة التي تحمل رقم التليفون وعرضتها عليه، وسألته عن صاحب الرقم إياه. وكانت المفاجأة.. إنه رقم أحمد حسن البكر رئيس جمهورية العراق.

ولم أشاهد صاحبي هذا حتى الآن. الرجل الذي كان ضحية أم المقالب على وزن خالتي أم المعارك، يرحمها الله!

٢٠ ـ «عكش زوز»

ولم تقتصر مقالب العبد لله على حدود مصر والعالم العربي ولكنها خرجت إلى حدود أبعد وأوسع مدى. وأصل الحكاية أن العبد لله كان عضوا في وفد مصر إلى مؤتمر الشعوب الآسيوية الأفريقية المنعقد في غانا. وكان الوفد المصري برئاسة خالد محيي الدين. وكان أكبر الوفود ويضم عددًا كبيرًا من مشاهير الأدباء أمثال يحيى حقي وعبد القادر القط وإحسان عبد القدوس. وكان يوسف السباعي هو سكرتير عام المؤتمر باعتباره سكرتير عام المؤتمر الآسيوي الأفريقي بالقاهرة. وجاءت طائرة روسية ضخمة إلى مطار القاهرة حملت أعضاء الوفد المصري وبعض الوفود الأخرى التي كان أفرادها يعيشون كلاجئين سياسيين في مصر.

وكان من بينها وفد خليجي يرتدي أفراده العباءة والدشداشة والعقال. وجاء مقعدي بالطائرة إلى جوار رئيس هذا الوفد الخليجي، وكان إلى جانب العباءة والعقال يحمل في يده شنطة سامسونايت آخر طراز مكسوة بجلد تمساح مدبوغ بطريقة يسيل لها اللعاب. وعندما حلقت بنا الطائرة في الجو نظر جاري في وجهي نظرات فاحصة ثم سألني:

ـ إنت محمود السعدني؟

ـ نعم.

ـ يا هلا.. والله إحنا نقرالك ونحبك.

ـ يا ألف مرحب.

ورحنا نتبادل أطراف الحديث.. حتى حطت الطائرة على أرض الجزائر وبتنا ليلة في الجزائر تجولنا فيها ليلًا في حي القصبة، والقصبة كلمة عربية ضليعة على رأي الشيخ عبد العال، ومعناها العاصمة، وكل قصبة في أي مدينة عربية كانت هي العاصمة القديمة. فلما اتسعت المدن وامتدت ودخلها المستعمرون أطلقوا على العاصمة القديمة اسم الكاسبا. وأنتجوا عنها أفلاما، ولأن القصبة كانت من مخلفات العصور الوسطى، فلذلك كانت حواريها ضيقة ومساربها ملتوية ومظلمة، ولأن المستعمرين كانوا يريدون تشويهنا فقد افترضوا أن هذه الكاسبا هي بؤرة للجريمة وماخور للدعارة ومخانة للمخدرات ووكر للجواسيس. وصدقنا نحن أيضًا هذه الإشاعة، وتخلينا عن الاسم العربي القصبة. والتوت ألسنتنا ونطقناها الكاسبا.

المهم أيها السادة لم تقع لنا أحداث تذكر في تلك الليلة إلا أن رئيس الوفد الخليجي الذي يحمل شنطة سامسونايت مكسوة بجلد التمساح توقف فجأة أثناء جولتنا وقال للعبد لله:

ـ أستاذ.. عكش زوز؟

ولم أفهم في البداية ولكنه شرح لي الأمر زوز يعني زوج، والمقصود زوج دولارات.. ولما لم يكن معي دولارات، فقد نفحته

زوز إسترليني وتكرر الأمر بعد ذلك في باماكو عاصمة مالي وفي داكار عاصمة السنغال وفي أكرا عاصمة غانا.. عند هذه المحطة كان رئيس الوفد الخليجي إلى مؤتمر الشعوب الآسيوية ـ الأفريقية قد لهف ثلاثة أزواز، جمعهم ٦ جنيهات إسترلينية.

ولكي تدرك جسامة هذا المبلغ ومدى تأثيره على ميزانية العبد لله أقول لحضراتكم إنني قد غادرت القاهرة ومعي خمسة جنيهات إسترلينية كان مسموحًا بالخروج بها لأي مصري يحصل على تأشيرة خروج من مصلحة الجوازات المصرية، ولأن العبد لله كان على علاقة صداقة بالرجل المسئول عن إدارة النقد الأجنبي في الحكومة المصرية وهو الأستاذ محمد الخواجة، فقد سمح للعبد لله بتحويل ٢٥ جنيهًا مصريًا حصلت بمقتضاها على ١٨ جنيهًا إنجليزيا فأصبح المجموع ٢٣ جنيهًا. وأيضًا لأنني لا أطيق القيود الأميرية ولا أخضع لها فقد تمكنت من تهريب ورقة مالية من فئة الخمسين دولارًا تساوي في ذلك الزمان ٢٠ جنيهًا إنجليزيا فيصبح المجموع هو ٤٣ جنيهًا إسترلينيا هي كل ثروتي في الحياة.

المهم أننا وصلنا أخيرًا إلى قرية «وينيبا» على شاطئ المحيط حيث ينعقد مؤتمر الشعوب الآسيوية ـ الأفريقية في جامعة نكروما للتكنولوجيا. ونزلنا جميعًا في مساكن طلبة الجامعة. رؤساء الوفود ومنهم رئيس الوفد الخليجي أنزلوهم في أجنحة وأعطوا كل فرد من أفراد الوفود حجرة، وأعطوا الصحفيين حجرة لكل اثنين، وكنت سعيد الحظ، لأنني أقمت في غرفة واحدة مع المرحوم فيليب جلاب. ولم يكن الجناح هو الميزة الوحيدة التي حصل عليها رؤساء الوفود،

ولكنهم حصلوا أيضًا على سيارة بسائق، والسيارة من النوع الباكار موديل سنة ٦٢ سوداء اللون، وهذا النوع من السيارات كان مخصصًا لكبار المسئولين في الحكومة الغانية.

وقبل انعقاد المؤتمر بيوم واحد توقفت سيارة رئيس الوفد الخليجي أمام المكان الذي اخترناه لجلستنا اليومية، وكان مكانًا ساحرًا في حديقة الجامعة وتحت شجرة مانجو مثمرة، كان يتساقط منها بين الحين والآخر ثمار المانجو الناضجة فنسرع إليها ونغسلها ثم نلتهمها. جاء رئيس الوفد الخليجي ونزل من سيارته الفارهة وجلس معنا وبعد فترة دامت نحو ساعتين استأذن في الانصراف واقترب من العبد لله وهمس في أذني قائلًا:

ـ عكش زوز؟

وأسرعت ملبيًا الطلب وضربت يدي في جيبي وأخرجت له زوز من الجنيهات الإسترلينية ناولته إياها فصار الميزان التجاري بيني وبينه لصالح العبد الله بنسبة ٨ جنيهات إسترلينية. ولا أكذب عليكم إذا قلت لكم إنني فرطت في نقودي بنية سيئة، فالعبد لله مثل أبناء جيله كنا نسمع قصصا عن ثراء أبناء الخليج وتبذيرهم في الإنفاق وتفننهم في بعثرة الأموال أحيانًا بسبب وغالبًا بدون سبب، ثم إن منظر الشنطة التي كان يحملها معه كانت توحي لمن يراها بأنها تحمل خيرات كثيرة، كما أن فكرتي عن الرجل وشنطته أنه أرض صالحة للزراعة وأن الأزواز التي حصل عليها ما هي إلا بذور لا تلبث أن تطرح ثمرًا وفيرًا.

غاب رئيس الوفد لمدة يومين انشغل فيهما في مقابلة الوفود وفي

الإعداد لخطبته النارية العنترية التي سيلقيها في جلسة اليوم الثالث، ثم عاد إلى جلستنا تحت شجرة المانجو، وأكمل معنا نصف ما جمعناه في ذلك اليوم ثم شرب الشاي الذي أعده لنا الشيخ موسى، وهو مسلم غاني كان مستعدًا لأن يدفع حياته ثمنًا لشريط تسجيل عليه صوت الشيخ مصطفى إسماعيل، وبعد أن انتهت القعدة اقترب مني وهمس في أذني:

ـ عكش زوز؟

وضربت لخمة مع العبد لله، فلم يعد معي من الأزواز إلا قليلًا، ولكن لأن الطمع يقل ما جمع فقد أعطيته الزوز، ولكن لأن الكيل فاض بالعبد لله، فقد سألته على استحياء:

ـ إنت مافكيتش الحوالة؟

ـ حوالة إيش أنا ما معي حوالة.

ـ أقصد الشيك.

ـ أنا ما معي شيكات.

ـ أمال إيه الحكاية؟ لازم تروح البنك بنفسك.

ـ وليش أروح البنك مالي مصلحة هناك.

قلت وقد غلب حماري وضاق صدري واستبد بي القلق:

ـ آه يبقى لازم تروح السفارة علشان تقبض.

ـ أنا ما أقدر أروح السفارة.

ـ ليه؟

ـ كيف أروح السفارة وأنا زعيم الحزب الاشتراكي.

اشتراكي يابن المركوب، أول خليجي أعرفه في حياتي يطلع اشتراكي ويلهف من الرأسمالي العربي الكبير العبد لله نصف دستة من الأزواز، وكدت أنحني وأخلع حذائي ليس لضرب الخليجي الاشتراكي، ولكن لأنهال بالضرب على رأس العبد لله، أنا أستحق الضرب بالفعل، لأن هذا المؤتمر الذي نحن فيه هو مؤتمر للمناضلين الوطنيين وللمكافحين السياسيين، وأعضاؤه مكافحون أي نعم ووطنيون ما فيش كلام ولكنهم جميعًا أنظف من الصيني بعد غسيله. كل أعضاء الوفود المشتركة يعيشون في المنفى إلا وفد مصر ووفد الاتحاد السوفييتي ووفد الصين، فيما عدا هؤلاء فشعار الآخرين: «عشانا عليك يا كريم». ضاعت فلوسي وأشرفت على الإفلاس بفضل السيد رئيس الوفد الخليجي الاشتراكي!

واستبد الغيظ بالعبد لله وفكرت في طريقة للانتقام. ولكنني عدلت عن فكرة الانتقام لأن المسئول عن هذا الذي حدث هو غبائي الذي ليس له نظير. ولكني طلبت من الشيخ الاشتراكي أن يتنازل عن سيارته لأذهب بها إلى مشوار في العاصمة أكرا.. فوجئت بالشيخ الاشتراكي يقول للعبد لله: خد سيارتي خليها معاك أنا ما أريدها. ثم رجاني أن أقبل منه هدية، ولم أكن في الواقع في حاجة إلى رجاء فقبلت الهدية، وهي جلباب حرير ياباني وغترة وطاقية شبيكة.

المهم في اليوم التالي ارتديت الجلباب وركبت السيارة ونزلت أكرا، وقمت بجولة في العاصمة الجميلة لولا الروائح الكريهة التي تنبعث منها، لأن مياه الصرف الصحي تجري داخل العاصمة في

قنوات مكشوفة وعدت حوالي الرابعة بعد الظهر إلى وينيبا، ودخلت جامعة نكروما وأنا مجعوص آخر انجعاص في الكرسي الخلفي للسيارة، ويدي متشعلقة في الجلدة التي تتدلى من سقف السيارة، والهواء داخل للسيارة من النافذة المفتوحة يهفهف الجلباب الحرير، أوقفت السيارة عند باب المبنى الذي ننزل فيه. وبالصدفة كان فيليب جلاب واقفا عند المدخل، فما إن رآني نازلا من السيارة حتى فتح فمه من شدة الدهشة وهرع نحوي مرحبًا بسعادة الشيخ، ثم أمسك بيدي وانحنى محاولًا تقبيلها، وتقمص العبد لله الدور فمسحت على رأسه وقلت له: بارك الله فيك.. بارك الله فيك.. وقبل أن ننفجر ضاحكين فوجئت بخمسة من الصينيين يقفون أمامي مباشرة في حالة ترصد، انحنى الخمسة حتى لامست وجوههم الأرض، ثم وقف رئيسهم أمامي وقد ضم أصابع يديه كأنه يصلي، ودار بيننا هذا الحوار التاريخي الهام:

ـ سيادة الرئيس اسمح لي أن أسألك أنت رئيس أي وفد؟

أجبته بلا مبالاة:

ـ رئيس وفد الجيزة.

وعلى الفور امتدت يده إلى جيبه وأخرج أجندة وقلما وراح يسجل المعلومات.

ـ متى وصل الوفد يا سيدي إلى المؤتمر؟

ـ بالأمس فقط.

ـ وهل سجلتم وصولكم لدى سكرتارية المؤتمر؟

ـ نعم بكل تأكيد.

ـ وكم عدد أعضاء الوفد؟

ـ خمسة عدا الرئيس الذي هو أنا.

كان فيليب جلاب يستمع إلى العبد لله مذهولًا دون أن يتدخل بالكلام.

وانحنى الرجل الصيني أمامي عدة مرات ثم قال في لهجة خطابية:

ـ سيدي رئيس وفد الجيزة.. إن لي الشرف أن أقدم لكم دعوة رسمية باسم حكومة الصين الشعبية لزيارة بكين لمدة أسبوع للتعرف على بلادنا، ونرجو أن نتلقى منكم دعوة لزيارة جمهورية الجيزة العظيمة التي نتابع جهدها وصمودها ضد الإمبريالية والاستعمار.

قلت في لهجة خطابية أعلى:

ـ وأنا باعتباري رئيسا لوفد الجيزة أعلن قبولي لدعوتكم الكريمة وأرجو أن تحددوا الوقت لكي نبدأ زيارتنا للصين الشعبية، ومن الأفضل أن نبدأ الزيارة من غانا وإلى الصين رأسًا، كما أرجو أن تقبلوا دعوتنا لزيارة جمهورية الجيزة العظيمة التي سيتحدد موعدها فيما بعد.

وفوجئت بكل أعضاء الوفد الصيني يصفقون بحرارة ثم أقبلوا لتهنئتي والإشادة بتاريخ جمهورية الجيزة العظيمة. وبعد التحية والترحيب أمسك الرجل الصيني بالورقة والأجندة وطلب مني أسماء

أعضاء الوفد الذي سيسافر إلى الصين، ووعدني بإحضار التذاكر في اليوم التالي. وذكرت له الأسماء محمود برعي وسعد برعي وأحمد برعي وخليفة برعي ومنصور برعي وفيليب برعي.. ودون الرجل الأسماء ثم انحنى عدة مرات ثم استأذنت منه في الانصراف ولكنهم وقفوا في أماكنهم ودخلوا مع بعضهم في نقاش حاد، بينما أخذت طريقي مع فيليب جلاب إلى غرفتنا بدون اهتمام. ولم أدرك وقتها أنني تسببت في وقوع أكبر مشكلة دولية بين الصين وروسيا ومصر. وكانت السبب في نسف المؤتمر. ولكن كيف حدث هذا؟

٢١ ـ أمه اسمها الاتحاد السوفييتي

مضى اليوم التالي في أمان الله، سافرت مع فيليب جلاب إلى أكرا في سيارة صديقي الخليجي الاشتراكي. وعدت في المساء، وجلست تحت شجرة المانجو أستقبل ثمارها الناضجة التي تسقط علينا بين الحين والآخر، ونشرب شاي الحاج موسى الغاني، ونستمتع بليل غانا الهادئ الذي تعكر هدوءه أصوات غريبة صادرة من الغابة القريبة.. ثم أويت إلى فراشي مع رفيق حجرتي فيليب جلاب. استيقظت في الصباح على يد تهزني بعنف وعندما فتحت عيني أبصرت وجه يوسف السباعي، ومن خلفه عدة وجوه تبينت بعد فترة أنها للسادة أعضاء وفد الصين الشعبية. وتصورت أنهم جاءوا بالدعوة لرئيس وفد الجيزة، ولكن اكتشفت أنني متهم، وتهمتي أنني نسفت مؤتمر الشعوب الآسيوية ـ الأفريقية! وقف يوسف السباعي وهو يشير نحوي وقال بلهجة أشبه بلهجة رئيس نيابة أمن الدولة وسأل الصينيين:

ـ هل هذا هو الشخص الذي قدم لكم نفسه على أنه رئيس وفد الجيزة؟

وهز الصينيون رءوسهم بالإيجاب، وقال يوسف السباعي:

ـ إذن اسمعوا: هذا الرجل عضو في وفد مصر واسمه محمود السعدني وهو صحفي وكاتب ساخر معروف! وليس أمامكم إلا أن تعتذروا عن كل كلمة نطقتم بها أثناء جلسة الأمس، ولابد من تسجيل اعتذاركم في محضر الجلسة. وإلا فإني مضطر لعرض الأمر على سكرتارية المؤتمر لاتخاذ القرار المناسب.

ونظر الصينيون نحوي وكأنهم يلتمسون عند العبد لله الجواب الشافي الذي يخرجهم من هذا المأزق الخطير، وقلت لهم وأنا مضطجع على السرير أحاول طرد النعاس من عيني:

ـ ما يقوله يوسف السباعي صحيح، والأمر كان مجرد مزاح لا أكثر ولا أقل!!

ورطن الوفد الصيني بلغة كونفشيوس. وفهمت دون معرفة باللغة الصينية بأنهم يلعنون خاش العبد لله ويلعنون سنسفيل جدودي، ولكن لم أعبأ بشتائمهم وتركتهم يرغون ويزبدون، وانتهزت فرصة مغادرة يوسف السباعي للمكان فعدت لمواصلة النوم من جديد. ولكن «فيليب جلاب» جعل النوم يفر من عيني عندما جذبني بشدة من يدي، وحثني على النهوض لمعرفة حقيقة الأمر. وفي الحديقة التي تفصل بين قاعة المؤتمر ومكان الإقامة، التقيت بسيدة فاضلة تعمل بالجامعة الأمريكية وتقوم بالترجمة الفورية أثناء الجلسات، وما أن رأتني حتى أطلقت ضحكة صافية من أعماقها وقالت للعبد لله:

كنت هتدخل التاريخ إمبارح، لأن الحرب العالمية الثالثة كانت هتقوم من وراء مقالبك.

وجلس فيليب جلاب وأنا أستمع إليها وهي تردد لنا ما حدث بالأمس:

انعقدت الجلسة كالمعتاد، ووقف مندوب الكونغو «زائير» وراح يلقي خطابه عن الأحوال في أفريقيا، وعن التدخل الاستعماري الإمبريالي، وعن دور عملائه وأعوانه في نهب ثروات أفريقيا وقتل أحلامها. وفجأة.. وقف رئيس الوفد الصيني وصرخ من أعماقه، وقال وكأنه عنتر بن شداد على أهبة دخول الحرب:

ـ أيها السادة، دعونا من هذه الخطب الجوفاء التي ملت الآذان سماعها، لقد اكتشفنا خيانة داخل هذا المؤتمر ولابد من كشفها علنا وعلى رءوس الأشهاد، ولقد كنا دائمًا تساورنا الشكوك حول سكرتارية المؤتمر وانحيازها بالكامل للنظام الذي يحكم الاتحاد السوفييتي، وكانت تساورنا الشكوك في أمر السيد يوسف السباعي، والتزامه بالتعليمات التي تصدرها موسكو. ولكن جاء اليوم الذي تبددت فيه هذه الشكوك وحل محلها يقين ثابت، ولدينا الدليل القاطع.

هنا حاول مندوب زائير أن يواصل إلقاء خطابه ولكن رئيس الوفد الصيني نهره بشدة، وقال له بصوت صارخ:

ـ اسكت أيها العميل الصغير، فأنت أيضًا واحد منهم لأنك لا تتلقى التعليمات فقط، ولكنك تتلقى النقود أيضًا.

وانفعل المندوب الزائيري، ولكن رئيس وفد الصين قاطعه

قائلًا: هل تستطيع أن تدلنا على الطريقة التي جئت بها إلى هنا؟ ورد المندوب الزائيري قائلًا في لهجة ساخرة:

ـ لقد جئت إلى هنا بالطائرة.

ورد مندوب الصين قائلًا له:

ـ ولكن من الذي دفع لك ثمن التذكرة؟

وقال المندوب الزائيري في هدوء:

ـ أمي هي التي دفعت ثمن التذكرة.

وسأله المندوب الصيني:

وهل أمك اسمها الاتحاد السوفييتي؟

ورد المندوب الزائيري ببرود شديد:

ـ أمي اسمها لاشيكا شابلا، هل ترغب في رؤية صورتها؟

وتدخل يوسف السباعي فقطع هذا الحوار الساخر بين المندوب الزائيري ورئيس الوفد الصيني، وقال يوسف موجها خطابه لمندوب الصين:

ـ هل تستطيع أن تكشف لنا هذه المؤامرة الآن، وأن تحيطنا علمًا بتفاصيلها؟

ورد المندوب الصيني:

ـ سأطلعكم على كل شيء إذا استطعت أنت أن تجبر هذا الببغاء على التزام الصمت.

وهنا ثارت ضجة كبيرة في القاعة ونهض مندوب الاتحاد السوفييتي، وهو عضو باللجنة المركزية وعضو بالمكتب السياسي، ولوح بقبضة يده في وجه المندوب الصيني، وقال وهو يضرب بيده على المائدة:

ـ إن المندوب الصيني أهان الوفود جميعًا، هو يحاول عرقلة أعمال مؤتمر الشعوب الآسيوية ـ الأفريقية، لمصلحة من يعمل لحسابهم في أجهزة مخابرات الغرب.

وانتفض المندوب الصيني وقال متهكمًا:

ـ مؤتمر الشعوب.. وأين هي هذه الشعوب، إن أغلب الموجودين هنا حثالة.. وأغلبهم يعمل في أجهزة مخابرات الاتحاد السوفييتي ويعيش على حسابها، إنهم مجرد عرائس خشبية تحركها أيد مدربة على أعمال السيرك السياسي.

وتدخل يوسف السباعي مرة أخرى وقال للمندوب الصيني:

ـ نحن في انتظار أن نسمع منكم تفاصيل المؤامرة التي تحدثتم عنها، والاطلاع على الدليل القاطع الذي تحت أيديكم.

وخيم السكون على القاعة، وقال المندوب الصيني:

ـ إن في هذه القاعة وفدا يمثل دولة أفريقية حديثة العهد بالاستقلال، ولكن هذا الوفد لم يدرج في قائمة الوفود المشاركة، وهي القائمة التي وضعتها سكرتارية المؤتمر ووزعتها علينا في جلسة الافتتاح.

ونظر يوسف السباعي في القائمة التي أمامه. وقال لأعضاء المؤتمر:

ـ إن القائمة تحوي ٤٣ دولة مشتركة عدا ثلاث دول اشتركت بصفتها مستمعة وأسماء الدول في هذه القائمة، ويستطيع المندوب الصيني أن يراجع القائمة على المندوبين الموجودين الآن في القاعة.

وهز المندوب رأسه عدة مرات، وقال ليوسف السباعي:

ـ عفوا ياسيادة السكرتير العام، هناك وفد خلت القائمة من اسمه، وقد تشرفت بلقاء رئيس الوفد وأجريت معه حوارًا ووجهت له دعوة لزيارة الصين وأعلن قبوله لها على الفور، وهو دليل على أنه وفد محايد بالفعل، وأنه جاء إلى هنا على حسابه ومن حر ماله وليس عالة على الآخرين. وتساءل يوسف السباعي:

وهل هذا الوفد موجود الآن في القاعة؟

ومسح المندوب الصيني القاعة ببصره ثم قال:

ـ للأسف الشديد لم أعثر له على أثر في الصباح، ويبدو أنه لم يحضر حتى الآن.

والوفد المحترم الذي أعنيه هو وفد الجيزة، وهو مكون من خمسة أعضاء غير الرئيس، وهو صاحب السعادة محمود برعي. والأعضاء هم: سعد برعي وأحمد برعي وسيد برعي إلى آخره.. وسعادة رئيس الوفد يستقل سيارة من النوع المخصص لرؤساء الوفود، وقد أعلن قبوله لدعوتنا له لزيارة الصين الشعبية، ووعدنا بتقديم دعوة لنا لزيارة

جمهورية الجيزة المناضلة التي تخلصت أخيرًا من الاستعمار، وفي نيتها مقاومة كل أشكال الاستعمار أيًا كان لونه!

ولم يفطن يوسف السباعي ـ رغم ذكائه ـ إلى أن المندوب الصيني كان ضحية هزار من النوع الثقيل، وكان ينبغي أن يفطن إلى ذلك بسبب أسماء أعضاء الوفد التي تنتمي كلها إلى عائلة برعي الشهيرة! ولكنه قال لرئيس الوفد الصيني:

ـ على العموم.. كل الوفود موجودة الآن في القاعة، وهذه الجلسة بالذات لابد أن تحضرها كل الوفود، فإذا كان هناك وفد لم يحضر حتى الآن فهو في طريقه إلينا على أية حال.

ورد المندوب الصيني في عصبية شديدة:

ـ وإذا كانت هناك مؤامرة لإبعاد هذا الوفد بالذات عن هذه الجلسة بالذات. ورد يوسف السباعي في هدوء:

ـ عندئذ سيكون هناك حل لكشف هذه المؤامرة، ولكي نكتشف من هو المتآمر؟ هل هو سكرتارية المؤتمر؟ أم هو رئيس الوفد الصيني؟ ومضت الجلسة كما كان مرسومًا لها من قبل وبعدها اجتمع رئيس الوفد الصيني بيوسف السباعي، واتفقا على تفتيش غرف أعضاء المؤتمر في الصباح الباكر للعثور على أعضاء هذا الوفد المزعوم.

وبالفعل قام رئيس الوفد الصيني مع يوسف السباعي في الصباح الباكر بتفتيش كل الحجرات، حتى كان الدور على حجرة العبد لله، ليتم العثور على رئيس وفد الجيزة.

وصرت بعدها منبوذًا من الوفد الصيني والوفود التي تسير في مداره.. وقابل هذا النفور الصيني حفاوة بالغة من الوفد الروسي.. الشيء الوحيد الذي لم يفهمه رئيس الوفد الصيني هو ركوبي لسيارة رئيس أحد الوفود، لم يفهم الصيني أن في بلادنا ظروفًا مختلفة وأوضاعًا غريبة، رئيس وفد خليجي من أغنى دول الخليج والجزيرة العربية يرفع راية الاشتراكية، وكانت حركة كاذبة، لأن صاحبنا هذا رئيس الوفد صار فيما بعد مليونيرًا وبنكيرا يشار إليه بالشيكات! طائرات خاصة وقصور في لندن وكان وماربيا، ولكنه أيام النضال الخنفشاري اضطر إلى اقتراض عدة «أزواز» من الجنيهات الإسترلينية اضطرته إلى التنازل عن جلبابه وسيارته.

وهكذا وصلت السيارة إلى سعادة محمود برعي الشهير بمحمود السعدني رئيس وفد الجيزة، إحدى الدول المناضلة التي تخلصت من الاستعمار حديثًا، وفي نيتها أن تقاوم كل أشكال الاستعمار أيًا كان لونه، ومهما تكن شعاراته!

٢٢ـ رئيس جاعورة

انتهى مؤتمر الشعوب الآسيوية الأفريقية بخيره وشره، وخطب وزير إعلام غانا في نهاية المؤتمر مخاطبًا الحضور قائلًا:

لقد استقبلناكم بالترحاب، واستضفناكم وأطعمناكم أيضًا، والآن انتهى المؤتمر بسلام، وستغادرون وينيبا الليلة، وستقوم الوفود بالإنفاق على نفسها منذ الآن.

وتفرق المؤتمر بعد خطاب وزير الإعلام، وسافرت إلى أكرا برفقة الصديق عادل شريف مذيع مباريات التنس الشهير صاحب تعبيرات «ضربة ساحقة ماحقة لا ترد ولا تصد» وزوج المذيعة اللامعة سامية صادق.

وعادل شريف لمعلوماتكم من أصول تركية أو ألبانية، أبيض على أحمر سمين ومن ذوي العيون الملونة، وكان خلال إقامتنا في غانا يرتدي «الشورت وقميص حرير نص كم وصندل» من النوع الذي يستعمله المستعمرون الإنجليز في المستعمرات البريطانية.

ووصلنا أكرا في أمان الله، وعادل شريف يبدو عليه أنه إنجليزي

من قلب لندن، والعبد لله في زيه التقليدي، الجلباب الأبيض والشبشب الزنوبة والطاقية الشبيكة والحزام هلا هاالله.. على رأي طاهر أبو فاشا يرحمه الله ودخلنا على هذه الهيئة فندق الإمبسادور في أكرا، وهو أرقى وأغلى فندق في غرب أفريقيا، وأمام مكتب الاستقبال سألني الموظف الغاني: من أين؟ قلت له على سبيل الهزار: رئيس جاعورا. وعندما نطقت بهذه الكلمة انحنى كل الموظفين الذين كانوا في بهو الفندق، وأشرت إلى المرحوم عادل شريف وقلت لهم: أريد حجرة لسكرتيري بجوار جناحي مباشرة.

حتى هذه اللحظة كان الموضوع كله مجرد مزاح لا أكثر ولا أقل، ولكن لأن المؤتمر كان يحضره أكثر من رئيس على شاكلة رئيس جاعورا، وكانت هناك تعليمات بنزول الرؤساء زملائي في أجنحة فاخرة، وتوفير كل سبل الراحة لهم فقد وجدت نفسي فجأة في الجناح الملكي، وانحنى موظف الاستقبال للعبد لله وهو يسلمني جواز سفري المكتوب باللغة العربية، والذي لم يفهم منه الموظف شيئًا، ودخلت المصعد ومن خلفي عادل شريف في هيئة السكرتير المدرب على خدمة الرؤساء.

وخلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في الفندق تركت لعادل شريف مهمة التفاهم مع إدارة الفندق، مكتفيا أنا بالتفاهم مع السكرتير باللغة الجاعورية، وتصورت أن إدارة الفندق تعلم حقيقتنا ولكنها تحب الهزار، ولذلك كنت أرفض زجاجات الويسكي التي يصعد بها الجرسون إلى جناح رئيس جاعورة كل مساء، فلم تكن الميزانية تسمح بتغطية مثل هذه النفقات! ولكني تأكدت بعد ذلك بأن الأمر جد

وليس به أي أثر للهزار، فقد طلبت من استعلامات الفندق أن تحجز لنا مقعدين في استاد أكرا لمشاهدة مباراة كرة قدم بين أكبر ناديين في أكرا، ولم أكن قد شاهدت الكرة الغانية بعد، وذهبت بنا سيارة ليموزين أعدها الفندق، وانفتحت لنا البوابة الخارجية ودخلنا حتى المدرجات، وعندما نزلت من السيارة بالجلباب والشبشب الزنوبة خبط العساكر الأرض بأحذيتهم وضربوا تعظيم سلام لصاحب الفخامة رئيس جاعورة، واحتل فخامة الرئيس الذي هو العبد لله مقعدًا في الصدارة في مقصورة الاستاد، وجلس عادل شريف في مقعد خلف صاحب الفخامة الرئيس، وانهالت المشروبات من كل صنف يحملها جرسونات يرتدون الاسموكن والقفازات البيضاء، ونظرت في أنحاء المقصورة فلم أجد أحد سوانا.

إذن كل هذه الاستعدادات كانت لحضرة صاحب الفخامة وبطانته، يبدو أن الفندق اتصل بإدارة الاستاد. ليكون جاهزا لاستقبال صاحب الفخامة، وشعرت بالفزع أثناء المباراة فقد أدركت أن مستقبل الكورة سيكون في تلك البلاد، واستبد بي الحماس فصفقت بشدة وهتفت لحارس المرمى الذي كان مستواه لا يقل عن مستوى يانكس الإنجليزي، وبعد المباراة التفت حولي جماهير النادي الذي نال تشجيع فخامتي استحسانًا، وهتفت جماهير النادي الآخر بسقوط صاحب الفخامة، وتدخلت قوات الشرطة لتأديب المشجعين الذين لا يعرفون العيب ولا يتمسكون بأخلاق الاستاد وأحاطني البوليس الغاني بحزام من العساكر المدججة بالسلاح وجاءت السيارة الليموزين وأخذت العبد لله وخرجت بصاحب الفخامة من الباب الخلفي!

وفي اليوم التالي خرجت في نفس السيارة إلى السوق، وطلبت من السائق أن يذهب بنا إلى محل يبيع المصنوعات المحلية، وإذا بي أجد نفسي في محل فشر محلات باريس، كان المحل يبيع بعض التماثيل الأفريقية المصنوعة من العاج إلى جانب المشغولات الجلدية، مع بعض الأحجار شبه الكريمة الموجودة في التربة الغانية، وعندما وضعت قدمي في المحل انحنى صاحب المحل ومعه عماله تحية لصاحب الفخامة، ووضعوا جميع المعروضات أمامي، وإذا بالأسعار نار تليق بمقام حضرة صاحب الفخامة، وعندما وجدت نفسي في ورطة اعتذرت عن عدم الشراء، ووعدت صاحب المحل بإرسال رجال الحاشية لاختيار ما يليق بفخامتي، وزيادة في التمويه سألت صاحب المحل سؤالًا على الماشي.. إذا كان يقبل شيكات صادرة عن البنك الجاعوري، ورحب صاحب المحل مؤكدًا لفخامتي ثقته الشديدة بالاقتصاد الجاعوري!

وانتهت زيارة صاحب الفخامة، وجاءت لحظة الحساب، وأمام موظف الاستعلامات قدموا الفاتورة لسكرتير صاحب الفخامة، ووقع عليها عادل شريف، الحساب خالص وصاحب الفخامة على العين وعلى الرأس!! وضربت إيدي في جيبي وأخرجت كبشة جنيهات غانية «١٥٠» جنيهًا تساوي جنيهًا إسترلينيا، وبالتأكيد كسروا دستة قلل وراء العبد لله.

وفي المطار حاولت بشتى الطرق إبعاد السائق والمرافق حتى يتسنى لسكرتير فخامتي حجز المقاعد لصاحب الفخامة في الدرجة السياحية!! وربنا ستر لأن الحيلة انطلت على المرافق، فقد طلبت

منه أن يصحبني إلى السوق الحرة، وذهب الرجل الطيب معي، وداخ دوخة الأرملة وأنا معه بحثًا عن سجائر فاخرة أبحث عنها منذ فترة، اسمها سمسون أرضي!! وسترها الله معنا حتى ركبنا الطائرة وانطلقت بنا في الجو، ولكن بعد عشر دقائق من الطيران والعبد لله الذي هو فخامة رئيس جاعورة يستعد للنوم، فوجئنا بالطيار يذيع علينا أنه مضطر للعودة إلى أكرا لأمر هام لم يشأ أن يكشف سره للركاب، فقلت لسكرتير فخامتي: لابد أنهم اكتشفوا اللعبة ولابد أننا سنقضي الشهور الستة القادمة في سجن أكرا، وهو سجن أجارك الله سجن في غابة وأشغال شاقة مع ثعابين الكوبرا وأسراب العقارب السوداء، وبدأت أستعد نفسيًا لهذه النهاية التعيسة، وهممت بالخروج من الطائرة وتسليم نفسي للبوليس عندما توقفت المحركات واستقرت بنا الطائرة على أرض المطار، وراح سكرتير فخامتنا يبحث في جيوبه عن نقود لعله يجد ما يكفي لتسديد فاتورة الفندق ودفع التعويض إذا لزم الأمر مقابل عدم حشرنا في سجن غانا الرهيب، ولكن الطائرة ظلت جاثمة على الأرض، ونحن مرابطون في مقاعدنا دون أن يقتحم أبوابها طابور من المخبرين، وبعد ساعة من الانتظار القلق القاتل أعلن الطيار أن العطل الفني في الطائرة قد تم إصلاحه، وأن الطائرة في طريقها إلى الجزائر العاصمة عن طريق داكار.

وفي الجو.. وعلى ارتفاع ٣٠ ألف قدم استراحت أعصاب رئيس جاعورة وسكرتيره الفخيم، فقد مر الأمر بهدوء وبدون مشاكل وأصبح رئيس جاعورة حرًا وبعيدًا عن أكرا وبوليسها النشيط، وأغمضت عيوني وأسلمت نفسي للنوم، في نفس الوقت الذي كان فيه شخير سكرتيري الفخيم يتصاعد في الفضاء!

٢٣ - بهلول هو المسئول!

يقولون إن التعذيب يكون أحيانًا احتجاجًا على التعذيب. وهو قول صحيح، لأنني تعلمت المقالب من مقلب أكلته في فترة الصبا لا يزال يلسع في نافوخي حتى الآن. حدث هذا والعبد لله في العاشرة من العمر. وفي أول أيام عيد الأضحى المبارك. ولما كان العبد لله هو الولد الوحيد على أربع بنات.مات أخ شقيق أكبر مني لا أذكره لأنه مات وعمري عامان. ومات أخ شقيق أصغر مني رأيته ولاعبته وأنا ابن تسع سنوات. وأصبح للعبد لله مكانة خاصة في الأسرة، فأنا الوحيد الذي نجا من مطحنة الموت، ولم يكن صلاح قد رأى الدنيا بعد، رآها بعد هذا الحادث الذي وقع للعبد لله أول أيام العيد الكبير بعشرة أعوام!

المهم أنني في ذلك اليوم قمت من النوم مبكرًا. وتناولت عيديتي ريال فضة كاملًا من بتوع السلطان حسين كامل، لو معك واحد منه الآن تستطيع بيعه للصائغ بمائة وخمسين جنيهًا على الأقل! ارتديت ملابس العيد الجديدة وخرجت من حارتنا وإذا بي أفاجأ بعم بهلول واقفًا على ناصية الحارة ومعه قفص وعلى القفص صينية، وفي

الصينية أوراق مطوية.. وبختك يابو بخيت، وحظك يا صاحب الحظ والنصيب!

وباعتباري رجل أعمال منذ مولدي ومُبْخَتْ وحظي حديد، قررت أن أستثمر أموالي، ولابد أنني من أصحاب النصيب. ولو لعبت البِلْيَة فسيتحول الريال إلى عشرة جنيهات.. رأس مال يصلح بداية لرجل أعمال يبدأ الطريق.

وقفت أتابع في البداية ولا أشترك في اللعب. حول عم بهلول بعض الصبية من جيلي وثلاثة رجال في سن عم بهلول. كلما تناول طفل ورقة مطوية طلعت على مفيش، أما إذا تناولها رجل خرج من أحشائها بعض الجنيهات. وببراءة الطفولة سألت أحد الكبار عن الورقة التي أختارها فأضمن الربح الوفير.

وكان الرجل طيبًا كما توقعت، فأشار نحو ورقة ونصحني بالتقاطها. ومددت يدي بالفعل والتقطت الورقة ودفعت فيها قرش صاغ كان يكفي لشراء رغيفين من أرغفة زمان. ولكن الورقة طلعت فاضية. ياللهول على رأي عمنا يوسف وهبي. وضرب شريك بهلول الذي تحول إلى مستشار للعبد لله جبهته براحة يده آسفًا على قلة البخت، واعتذر للعبد لله على سوء تقديره واختياره، وأشار نحو ورقة أخرى، وترددت بعض الوقت ثم مددت أصابعي وقبضت عليها في حرص شديد. وعندما تولى فتحها عم بهلول لم نجد فيها إلا الفراغ.

كان عم بهلول قد رأى الريال واستولى عليه بعد أن قام بفكه إلى قروش صاغ. وهمس الرجل المستشار في أذني بأن بهلول نصاب،

ونصحني بألا أدعه يفتح الورقة وإنما أقوم بنفسي بفتحها وسأجد فيها حتمًا ما يحقق أحلامي في الثراء. ودفعت القرش والتقطت الورقة التي نصح بها المستشار، وحاول عم بهلول فتحها ولكني رفضت. وقمت بفتحها بنفسي، ولكن عم بهلول عصلج بشدة وراح يلاعب الورقة بأصابعه ويخفيها في راحة يده، وأدركت أن المستشار صادق وأن عم بهلول يحاول إفراغ الورقة من الكنز الذي تخفيه.

ورفعت صوتي أهدد عم بهلول باللجوء إلى الشرطة. وارتعد عم بهلول لتهديدي فسلمني الورقة مرعوبًا. وعندما قمت بفتح الورقة كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت بالورقة حتة بخمسة فضة عوضت خسارتي البالغة التي أصابتني في الصميم.

انفتحت شهيتي بشدة، لقد بدأ العد التنازلي للوصول إلى الثراء. وهذه الحتة بخمسة هي أول الغيث ثم تنهال الجنيهات على رأس العبد لله. وانتابني جنون حقيقي، وبدأت ألتقط الورق الذي ينصح به المستشار، ولكن الأوراق كلها كانت فارغة، إنه حظ سيئ هذا الذي حط على دماغ محسوبكم، ولكن لابد أن ينجلي الليل وينكسر القيد وأحصل على فوائد استثماراتي كرجل أعمال، لم أفطن إلى أن عم بهلول هو الذي دس الحتة بخمسة في الورقة ليجر رجلي إلى حتفي!

وتحولت إلى مقامر وأنا في العاشرة، ولم يعد يهمني الربح ولكن كل ما أسعى إليه هو التعويض. وفي دنيا المقامرين مثل يقول: ما تبكيش على اللي خسر ابكي على اللي عايز يعوض! وورقة فارغة وراء ورقة فارغة حتى فرغت جيوبي تمامًا من صنف العملة.

شعرت بحزن شديد وكأنني فقدت أعز شيء في الحياة. جف حلقي وسرت برودة في جسدي مع أن الجو كان يميل للحرارة. إلى أين أذهب الآن وفلوس العيد تبخرت، تبددت أحلامي في المراجيح وحديقة الحيوان والتهام الكنافة بالقشطة من دكان الحاج صبحي، والفرجة على السيرك ومشاهدة الرجل الوحش وهو يصارع الأسود. إنها أول وأكبر صدمة في حياتي ولابد من الانتقام الرهيب، سأذهب إلى الشرطة وأقودهم إلى عم بهلول وأنتزع الريال الفضة من جيبه بالعافية. ولكن أين عم بهلول؟ لقد حمل القفص والصينية ورحل. ثم إنه لا يخشى الشرطة وهو معتاد بين الحين والآخر على النوم في الحجز داخل قسم الشرطة، كما أنه معتاد إجرام وتردد على السجون عدة مرات. أين ذهب عم بهلول؟ ليته يعود بقفصه وصينيته. ليتني أعثر على ريال آخر أمارس به اللعبة إلى آخر النهار.

لم يعد يعنيني المكسب أو الخسارة، ممارسة اللعبة هي الأهم. المقامر الحقيقي هو الذي لا يسعى إلى مكسب ولا يهتز لخسارة، المهم أن يلعب ويواصل اللعب. ولذلك فأخطر آفة في الوجود هي القمار. لأنك لو سكير ـ لا مؤاخذة ـ ستشرب زجاجة ثم تترنح. ولو شمام ـ لا مؤاخذة برضة ـ ستشم تذكرة أو تذكرتين ثم تكف. ولو رجل خلبوص ستقضي ساعة أو ساعتين ثم تغيب في رحلة نوم أشبه بالموت. ولكن القمار يختلف. لن يمنعك من مواصلة اللعب إلا أن تسقط مغشيًا عليك أو تموت!

والغريب أن القمار كان داء بعض عظماء التاريخ المصري: الزعيم سعد زغلول كان مقامرًا من الطراز الأول. كان القمار هو

تسليته الوحيدة، واضطربت أحواله المالية كثيرًا بسبب المقامرة، واضطر إلى بيع أطيانه في فترة من الفترات ليقامر بثمنها على الموائد الخضراء. والزعيم مصطفى كامل كان مقامرًا لا يشق له غبار وكان لا تهدأ نفسه إلا على موائد القمار.. والفنان الكبير كامل الشناوي كان مقامرًا كبيرًا، ومع ذلك ضبطته ذات مرة وهو نائم على مائدة قمار. والفنان الكبير يوسف وهبي كان مقامرًا بطبعه، قامر بأسرته وبسمعته واشتغل بالتمثيل في مطلع القرن، وهي مهنة لم تكن تشرف صاحبها في ذلك الزمان! وكل أطباء العالم الكبار في المهنة يلعبون القمار.

سألت أحدهم مرة عن سر هذه الظاهرة، فأجاب: لأن مائدة القمار هي المكان الوحيد الذي ينسى فيه الناس أن الجالس معهم طبيب. هناك ظاهرة تستطيع أن تلمسها بنفسك. اجلس مع شلة بينهم طبيب، لن تمر دقائق حتى يتحسس أحدهم جسده طالبًا منه أن يشرح سر الألم الذي يشعر به في رقبته أو كتفه أو أصابع قدميه؟ ولكن على مائدة القمار ينسى الناس مهنة الطبيب ويتعاملون معه كمقامر. وهي مسألة تسعد الطبيب الذي يريد الناس أن ينسوا مهنته.

والكاتب الروسي العظيم دستوفسكي كان من المقامرين العظام، وكتب رواية عن أحدهم أنتجتها السينما الأمريكية بعنوان (المذنب العظيم) وفتى الفتيان صخر شقيق الشاعرة الخنساء كان مقامرًا عظيمًا، وخسر كل قطيع الإبل الذي يملكه في لعبة القداح، وهي عبارة عن رماح قصيرة وصغيرة الحجم توضع في جراب، وكل مقامر يسحب رمحًا منها يجد عليه رقمًا فيكسب من الآخر عددًا من الإبل يساوي الرقم المكتوب على الرمح. وكانت هذه اللعبة

هي المفضلة عند شيوخ العرب قبل ظهور الإسلام.. وابن الأيهم ملك العرب الذي أسلم في عهد عمر ورفض أن يصفعه الأعرابي كما صفعه أثناء الطواف بالكعبة، ثم هرب ليلًا من المدينة ولجأ إلى القسطنطينية واعتنق المسيحية، لم يكن السر في هروبه هو رفضه لتنفيذ أمر عمر بأن يصفعه الأعرابي، ولكن سبب هروبه الحقيقي هو اكتشافه بعد إسلامه أن الإسلام يحرم الميسر ويعاقب عليه. وعاش في القسطنطينية يقامر حتى باع هدومه ومات فقيرًا لا يملك من حطام الدنيا شيئًا.

والحمد لله لأنني تعلمت الدرس في العاشرة من العمر. واكتفيت من المعركة التي خسرتها بالانسحاب من الشارع والعودة إلى البيت بعد ساعة واحدة من مغادرتي له. ودخلت إلى غرفة النوم وخلعت ملابسي الجديدة ونمت، واندهشت المرحومة أمي كثيرًا لهذا التصرف الذي كان غريبًا على ولد شقي مثلي يعبد الشارع ويكره البقاء في البيت. ولكنني بَرَّرْت تصرفي بأنني مريض أشعر بدوخة لا أعرف سببها. وبررتها أمي بأنها عين شريرة أصابت المحروس. وأطلقت البخور في البيت ودعت الأسياد إلى التدخل لإنقاذ الولد الحيلة من مصير أخويه اللذين سبقاه إلى دار النعيم.

والحق أقول لحضراتكم: إن حجم الكارثة التي أصابتني في ذلك اليوم، تتضاءل على جانبها كارثة أوناسيس إذا خسر مائة مليون في ساعة زمان، لأنه إذا ضاع مائة مليون من أوناسيس فسيبقى خمسمائة مليون، أما هذا الريال الفضة عيدية العبد لله في عام ١٩٣٧ . هذا الريال الفضة بتاع السلطان حسين كامل.. فكان كل رأسمالي في الحياة.

ولذلك.. فكل المقالب التي عملتها في الآخرين، السبب فيها هو المقلب الذي دبره للعبد لله عم بهلول، الذي هو بالتأكيد الآن في نار جهنم، جزاء الصدمة الشديدة التي أحدثها في نفس صبي صغير كان يخطو أولى خطواته على الطريق!



ملاعيب الولد الشقي

ولأني حمقري (مزيج من الحمار والعبقري) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلّاس.. ولأني حمقري كنت أرفع شعارًا حمقريًّا «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تقرقع على لسانه تقرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضًا حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطيبة على الجبين، والرعشة في أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. ياااللي! وهو يدور بها على خلق الله يبيع لهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، اكسسوارًا يرتديه الحزين الهلفوت ويسترزق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوسًا أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضي.. وهي تظل إلى آخر لحظة في الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضي الإنسان صاحب الحزن العظيم – ككل شيء في الحياة – يأكل ويؤكل، ولكن مثله لا يذاع له سر، وقد يمضي بسره إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكي وما أصعب أن تضحك.

ولكن هناك أيضًا ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الضـ [illegible] في الأعماق صار عبقريًّا، وإذا كان مجدبًا من الداخل أصبح بلياتشـ [illegible] قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظًّا في إنتاج المضحكين.. مصر العـ [illegible] جيل عشرات من المضحكين، ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمع [illegible] كبالونة منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالصو، بعضهم [illegible] وبعضهم مثل الذهب القشرة.




6 221102 026543

دار الشروق
www.shorouk.com